هدى عيد

سلطان وبغايا

رواية



سُلطان وبَغَايا

هدى عيد

سُلطان وبَغَايا

(رواية)

دار الفارابي

الكتاب: سُلطان وبَغَايا

المؤلف: هدى عيد

لوحة الغلاف: Edvard Munch (الصرخة)

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-462-2

الإهداء

إلى كلّ قارئةٍ وقارئ...

إلى كلّ مَنْ يؤمن بعدُ إيماني بجدوى هذا الضرب من الكلام...

هدى

توضيح

إنّ أسماء الأفراد والعائلات الواردة في الرواية
هي وليدة الخيال والحبكة الروائية، ولا تمتّ بصلةٍ
إلى أرض الواقع.

الكاتبة

إذا فَسُدَ الإنسانُ في قدرتِه ثمّ في
أخلاقِه ودينه فسُدتْ إنسانيتُهُ وصارَ مِسخاً
على الحقيقة.

ابن خلدون

مقدّمة

تبحث هدى عيد في هذه الرواية عن سؤال الأخلاق من دون وعظيّة، وعن جواب القيم من دون قولبة نمطيّة، وعن العدالة والمحاسبة من دون مباشرة. فتنتقل من موقف الباحث الى موقف الكاشف المغيّر، في وقفة أمام الذات، لضرورة الفصل بين الحقيقة والوهم عند «اختلاط البدايات بالنهايات».

في كلّ رواية جديدة، تدهشك هدى عيد بتقنيّة سرديّة جديدة، وإتقان تواطئها مع تعدّد الرواة/ الشخصيات، في لعبة تطويع الزمن وتكسّره بنبش الذاكرة في بال من يريد محوها، من أجل رسم بدايات جديدة، مع غلبة تقنية الاسترجاع التام في مخالفة سير السرد لخطّ الزمن، وتَرَجُّحِ بين الاسترجاع الموضوعي والذاتي لتسليط الضوء على ما غمض من حياة الشخصية الأساسيّة. والرواة جميعهم ضحايا تدور في فلك شخصيّة أساسيّة هي البطل، «سلطان زعتر» الغائب عن الرواية في زمن سردها، الحاضر في كل أحداثها

وحكاياتها، من خلال أحاديث ضحاياه عنه في ماضيهم وتحكّمه في رقابهم، على تسلسل زمنيّ لكلّ ضحيّة تروي حقبة معينة من حياته معها. شخصيّة أرادتها الروائية «قنبلة متفجّرة» ترسم مصير من حولها، تمثّل حركيّة الفساد في مقابل سكون الخضوع عند الضحايا/ البغايا، واستسلامهم للقدر الذي صنعه لهم سلطان.

هدى عيد، في روايتها السابعة، تبحث عن المختلف والجديد في الموضوعات الاجتماعيّة، لتقترف تعرية الواقع وزيفه في الإضاءة على المفاسد الاجتماعيّة ومعايب السلطة وأهلها، والمآزم النفسيّة، في ربط بينها وبين الرواسب اللاوعية، فتفضح العلائق بين الناس التي تقنّعت لتستر عهرها، وتبيّن الاستغلال والقهر بين المستبدّ والضحايا، من النساء والفنانين والتجّار وغيرهم.

الاستبداد هنا تمثّل بالبطل الماكر «الثعلب» الملقب بـ«سلطانوف» أو «الجاسوس» أو «سيّد الدولار»، الرجل الفاسد، «الشيطان بأسماء كثيرة»، الاستغلاليّ والنموذج المتسلّط للذكورة المعنّفة، أمّا زوجاته الستّ، فهنّ الصورة النمطيّة عن النساء الخاضعات لمزاجه وأقدارهنّ، المعنّفات اللواتي رسم لهنّ مستقبلهنّ من دون أن يبدين ثورة أو تمرّدًا، على تنوع قصصهنّ، باستثناء الأخيرة التي أحبّها كثيرًا ربّما لأنّه وجد فيها مرآته في

حقاراته واستغلاله، ما جعله يعيد النظر في سواد ماضيه، فينتهي كما انتهى أبوه، ممحو الذاكرة. وقد تكون الذاكرة عند الشخصيّات كافّة من دون استثناء هي البطلة، هي الذاكرة التي تريد أن تغفر لذاتها خطاياها وزلّاتها، لتكتب بداية جديدة في صفحة جديدة.

أمّا المرويّ له في داخل كون القصّ فهو زهيّة عصام زعتر ابنة أخيه الوحيدة التي تحبّه وتبحث عنه، وكأنّها المحقّق أمام الشهود جميعًا، والمفارقة أنّها تبحث عنه باسم الإنسانيّة وهو الذي عُرف على ألسنة جميع من قابلتهم من عارفيه بأنّه عديم الإنسانيّة. هي التي تجمع الأخبار عن عمّها، عبر جميع الوسائل الممكنة، الجريدة، مواقع التواصل الاجتماعي، الهاتف، المقابلات، نعرف حزنها على عمّها وكيف تدافع عنه، من دون أن نسمع صوتها. بطريقة ما، نشعر أنّ زهيّة تمثّلنا، نحن الباحثين عن حقيقة نريدها تخالف كلّ من نسمعه، لأنّها لا تتوافق ورؤيتنا مع من حفرنا له في قلوبنا محبّة لا تُمحى.

ولكلّ امرأة من نساء سلطان حكاية تمثّل فترة من حياته، وجميعهنّ شخصيّات مجروحة، واقعية غير رومنسية، غير ثائرة ولا متمرّدة، تستخدمهن الكاتبة، أولاً لتوضّح لنا مسيرة سلطان،

وعلاقتهنّ به، وكيف تلاعب بمصائر حياتهنّ، وثانيًا لتعالج عبرهنّ مسيرة التطوّر الاجتماعي والفكري في تحولات الشخصيّات وثالثًا الأحداث الناتجة من تأزّم العلاقات التي تُبنى على أسس مأزومة وهشّة، من أجل معالجة القضايا الاجتماعيّة الملحّة منها البيوت المشتبه فيها وتورّط شرطة الأخلاق ورجال السلطة، وإجبار الرجال زوجاتهنّ على الإجهاض أو رفضهم إنجاب البنات. وتبقى المسألة الأبرز الإضاءة على تعنيف المرأة على أنّها حالة موروثة مقبولة. فـ«حسيبة» مثلًا، تمثّل أقصى حالات القهر الاجتماعي التي تحفر في وجدان الإنسانيّة، تُشترى من أبيها ليؤتى بها كخادمة تظلم وتحقّر وتعنّف وتغتصب، ليكتمل مشوار عمرها بحثًا عن خلاص، بما لم ترسم له أو تخطّط، وهي أولى زوجات سلطان الذي استغلّها وباعها أيضًا، وكان انتقامه الأوّل بأن هجرها وباعها قبل أن تهجره كما فعلت والدته. وبذلك تبحث الروائيّة في قاع الذاكرة عند من شُوّهت طفولتهم، ظلمًا وهجرانًا وحرمانًا، فأرادوا الركض وراء المجد الباطل ظنًّا منهم أنّهم يصنعون الحياة، فكانوا صنّاع الموت لذاتهم أوّلًا ولكلّ من صودف مروره في حياتهم.

ويبقى أن نقول إنّها رواية الاحتجاب والظهور، رواية الخطيئة

والعقاب، رواية الضمير المنتظر عند مفارق كشح الضباب عن الذاكرة التي تريد أن ترث النسيان، صفحًا عن ذاتها، في توارث «الزهايمر»، هي رواية البحث في مسبّبات الشرّ الطالع من رواسب لاواعيّة وممارسة أعمال الفساد الواعية، في ظلّ أنظمة تمرّرها وتبرّرها، رواية البواطن الشريرة المتستّرة بأعمال البرّ والخير، رواية المساومات والتسويات في إطار القهر والاستغلال، من أجل البحث عن العدالتين.

د. ناتالي الخوري غريب

(١)

حقّقَ فيديو منشور عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ Youtube أعلى نسبة مشاهدة في اليومين الفائتين. و يصوّر الشّريط «سيدة لبنانيّة ثلاثينية تعلنُ عن اختفاء عمّها الملياردير اللبناني الشهير سُلطان بك زعتر الذي انقطعت أخباره منذ ما يزيد على خمسة أشهر، ولا أحدَ يعرفُ عنه شيئاً».

فالرجل خرج من قصره ليلاً بملابس نومه، بيجاما حريريّة زرقاء اللون، لم يُعلمْ أحداً بوجهته، ولم يترك خلفَهُ سوى هاتفه النّقّال الذي لم يستخدمه منذ أكثر من سنة.

هذا وقد أبكت السيدة الرقيقة الكثيرين، وهي تنتحبُ بحرقةٍ لغياب عمّها، راجيةً باسم الإنسانية ممّن يعرفه، أو يعرف عنه أيّة معلومات إخطارها بشأنه حيّاً كان أو ميْتاً عبر العنوان الذي أعلنتهُ، والذي تمّ تعميمه عبر الصحف في اليوم التالي، مع الإشارة إلى مكافأة مالية ضخمة لكلّ من يُدلي بأخبار وافية عن قريبها المذكور.

«سلطان بك زعتر من بلدة عين الفجور، منطقة السهوب،

محافظة الغروب، ابنة أخ المفقود السيدة زهية عاصم زعتر المعنية الأولى بالإخطار والمُقيمة حالياً في العاصمة: فيلا رقم ١٨، شارع عدلي باشا، هاتف ٧٧٧٧٧٧/ ٠٩٠».

- نعم، أنا هي، ماذا تريدينَ يا سيدة؟ نعم، ما هو اسمك تقولين؟ أهاً، أنتِ من عائلة سلطان زعتر حقّاً، هكذا إذاً، ولمَ تسألينَ عنهُ في منزلي؟ زوجته الشابة اقترحت الأمر، هي قالت لك إنّه كان يذكُرني كثيراً في الآونة الأخيرة، ابن حرام يعني حتى في آخر أيامه، طبعاً طبعاً من كانت عجينته فاسدة ستصلُح وهي تودّعُ الدنيا؟! أكبر حمار من يقولُ لك ذلك.

زعلتِ؟ لا يا عيني أرجوكِ إيّاكِ أن تزعلي، ماذا تكونين له؟ ابنة أخيه الأصغر عاصم، والله له أخ واسمه عاصم كذلك؟ لم يذكر لي هذا الأمر ولا مرّة، أصلاً هو لم يكن يجد وقتاً ليذكر أيّ شيء، دائماً كان هائجاً كثور مصارعة إسباني، يبحثُ عن المستحيل يناطحه، ويركلُ كلّ ما فيه.

لمَ تذكرينني الآن بما مضى؟ إنه زمنٌ بعيد لا أريد تذكّرَهُ... لكن أنت تريدين؟ تبحثين عن أي شيء، أيّ خبر قد يوصلك إليه، تبحثين عن الشيطان إذاً هاهاها، عدنا للزعل، لا أريد إغضابكِ

فأنتِ ضيفتي، لن تغضبي تقولين؟ طيّب سأحكي، تذكري أنك أنت من طلبَ الكلام ولستُ أنا من فعل.

تعرفين أنّ عمّك هذا قد خضَّ البلد في يومٍ من الأيام، وأنّه واحد من أصحاب الفضيحة الكُبرى في حقبة سابقة لم تدركيها؟ وأنه هو صاحب سُهاد التي شغلتِ الدنيا وملأت أخبارها كلّ بيوتات المجتمع اللّبنانيّ في وقت من الأوقات، سهاد التي جعلت مفكر بلادنا العظيم يومها، والذي رحل منذ مدة يقول عنها (سهاد هي الحكومة والحكومة كلُّها سهاد)، لا تعرفين... أكيد،أنّى لكِ أن تعرفي؟

كنتِ صغيرة يومذاك، وربّما لم تكوني على قيد الحياة بعد، أنت أصغر من أولادي لو تسنّى لي إنجابُ الأولاد، لكني لا أنجب، وذلك بفضل عمك، وبفضل عمليتيْ الإجهاض اللّتين ألزمني بإجرائهما على يدي طبيب سهاد تلك وبحضورها. مزّقا رحمي، وجعلاني أرضاً بواراً رغم الخصوبة التي كان يرشحُ بها جسدي، ورغم الجمال الذي كان يهيمُ في أنحائي. ماذا؟ تسألين إن كنتُ زوجته؟ بديهي أني كنت زوجته، لكنه تزوجني بعد ذلك حبيبتي لكي يأتي على ما تبقّى مني، وليسلبنَي قصرَ والدي لا لأنه يحبني، الشيطان لا يحبّ يا صغيرتي، يُغويك ويتركك أشلاءً تنهشها ذئابُ

المكان. تريدين الحكاية، أنت توجعين قلبي أيتها الصّبية، هل تدركين ذلك؟ لكني سأحكي إكراماً لك.

كنتُ يومئذ جميلة، شابة مدلّلة وثرية، بإمكانكِ البحث الآن عن آثار ذلك، لكن دون أن تحدقي إلى وجهي بهذه الطريقة الغريبة، تراجعي قليلاً لو سمحت، نعم هكذا أفضل...أقول إني كنت جميلة، وكان عمّكِ واحداً ممن تقدّموا لوظيفة سائق العائلة في قصرنا.

تمّ الإعلان عن الوظيفة الشاغرة عبر الصحيفة، بقيتُ أراهم ثلاثة أيام يدخلون ويخرجون إلى مكتب التوظيف في قصرنا، بعد ذلك وقع الاختيار عليه.

اصطحبني في اليوم التالي إلى الجامعة، الفتيات اللواتي التحقن بالجامعة الأميركية في بيروت كنّ معدوداتٍ في تلك الحقبة وأنا واحدة منهن، أدرس هناك اختصاص الأدب الإنكليزي، أهيمُ مع شعرائه شكسبير، وت.س إليوت وأحلّق مع كيتس، وأحلم بأن أكون بطلة أفلام كثيرة في الحياة.

يوصلني عمك كل يوم عند التاسعة وأحياناً عند العاشرة صباحاً، ثمّ يعودُ بي عصراً وربما في فترة الظهيرة وذلك وفقاً لبرنامج المحاضرات.

عيناهُ ناريتان، كثير الحركة ورأسه لا يستقرّ على حال، يَحَارُ الرجل كيف يحدثني، وكيف يبتكر الكلام كي يرنو إليّ، لا يشبه من كانوا قبله في صَمتهم، وفي ذهول نظراتهم، وفي التزامهم المقدّس بالتعليمات التي تُلقى على مسامعهم.

أنا أعودُ بك الآن إلى زمنٍ بعيد، إلى تلك الفترة التي ضجّت فيها العاصمة بخبر اختفاء بعض الشابات الصغيرات الجميلات. كلهنّ كُنَّ من بنات عائلاتٍ عريقة في بيروت، لن أنزلق إلى ذكر الأسماء، لا لا يجوز، المهم أنهن كن يتابعن دراساتهنّ في المرحلة الثانوية، أو كنّ ممن يدرسن في الجامعات.

الوصاية مشددة على سائقنا، أنْ لا يتركني لحظةً بعد انتهاء الدوام الدراسي... يعود بي فوراً إلى القصر. كان والدي متشدداً ومذعوراً مما يحدث، يتابع تفاصيله بحذر وريبة عبر الصّحف التي تصل إلى بوابة قصرنا كلّ صباح، وعمك سلطان عيناهُ ناريتان تشعلان كل ما يقف أمامهما.يصغي إلى تعليمات أبي صامتاً مطأطئاً رأسَه، لكنّه يحدّق إلى عينيّ بعمق وهو يتفحّصُ ملامحي عبر المرآة. لن أكذب عليك، شيءٌ ما كان يجذبني إليه، فيه رجولة صاخبة تنادي من يراها.

في يومٍ ونحن عائدان من الجامعة قلت له إنّ رأسي يكاد

ينفجر، وإني أشكو صداعاً أليماً يكادُ يفتت دماغي. كان رأسي يؤلمني بشدة، ولم أعرف لذلك سبباً، صدقيني لم أكن أتدلّل.

ركن السيارة السوداء الأميركية الصنع إلى جانب الطريق، نزل بسرعة، اقترب مني بعد أن فتح باب القسم الخلفي حيث أجلس وراءه مباشرةً، مدَّ يدَه بحبّةٍ بيضاء انتزعها من علبة صغيرة موضوعةٍ في جيب جاكتته الداخليّ، وقدمها إليَّ مع زجاجة ماء استلّها من صندوق سيارتنا، قال إنها هائلة لإزالة ألم الرأس، هو نفسه يستخدمها لأنه يعاني صداعاً أليماً في العادة، مفعولها مؤكد، وابتسم لي مشجعاً.

لم أحتجْ لأكثر من عشر دقائق، سرى تنميلٌ خفيف في جسدي... غرقتُ بعده في نومٍ عميق، ثم استيقظتُ في غرفة سهاد، وعلى سريرها بالذات. أنتِ كبيرة كفاية لتدركي كيف جرّني ذلك الرجل وتلك القوّادة إلى الرذيلة، وكيف أدمنتُ سريعاً المخدرات،وهو يوالي تقديمها بانتظام لي ولسواي كما عرفت لاحقاً، حتّى بتّ كالجَرو الذي ينتظرُ صاحبه ليلاً نهاراً.

أنامُ وأصحو ووجهُ سلطان لا يفارقني، عيناهُ الثاقبتان، ابتسامته السائلة، يداهُ اللّتان لا تفارقان جسدي، وجهي، شعري وروحي. يحدثني قليلاً، وأنا شبه غائبة عن الوعي، ويداعبني كثيراً، يتفرّس

في عينيّ ويدقّق النظر إلى أعضائي ثمّ يضاجعني مراراً وتكراراً، وعندما يرتوي مني يقدمني لسواه ممن تختاره لي سهاد.

عندما أستفيقُ خلال النّهارات ألاحظُ حولي بعض بنات كبار العائلات، وجوهٌ أتذكرُ أنّي رأيت ملامحها تتصدّرُ صفحات بعض الصحف والمجلات الدورية التي كانت تصلُ إلى قصرنا تباعاً.

تتحكّم فينا سهاد في النهار، وتتركنا للرجال ينهشونَ أجسادنا الطّريئة خلال الليل، لتتقاضى هي الأثمان، رجالٌ يلبسون بدلاتٍ أنيقة، وربطات أعناقٍ زاهية الألوان، يحتاجون إلى بضاعة نظيفة، تمّت تربيتها وفق الأصول، قواعد وأتيكت...ولغات أجنبية وموسيقى...أحياناً طلبت من بعضهن العزف على بيانو مركون في زاوية من زوايا الصالون الخافت الإضاءة.

المهم...كنت أسمعها تنادي أحدهم معاليك، وبغنجٍ تقول لبعضهم حضرتَك، وكثرة تقول لهم أنتَ. معاليكَ ذاكَ كان من نصيبها، يقصدها هي بذاتها، ولا يجرؤ على الالتفات إلى سواها، وإن فعلَ قرّعته بنعومة وقرصت أذنه متضاحكةً. كانت صاحبة جمالٍ وسطوة. امرأة تضجّ وتستطيع فرض إرادتها.

كنتُ أنا من نصيب سلطان بالدرجة الأولى، فريسته التي اصطادها يفعل بها ما يشاء، كلّ ما يشاء حتى أن يؤجرها لسواه وقتاً دون أن تكون لديّ القدرة على الاعتراض. أجبرني مرتين على

الإجهاض، ولم تنفعني توسلاتي ولا بكائي، كان صلباً كجدار، وتلك المرأة تسانده، ثمّ تقرّعني لأني غشيمة لا أحسن التعامل مع جسدي، تقولُ ذلك وتمشي بخيلاء.

المهم، بلا طول سيرة، كنّا في غارسونيرة شقة صغيرة في شارع الحمراء، تبعد مسافة نصف ساعة عن قصرنا الذي ورثه والدي عن جدي، ولكني لم أكن أستطيع الوصول إليه. كانت لتلك المرأة علاقاتٌ مع شخصيات بارزة بالبلد، علاقاتها اتخذت طابعاً سياسياً، نعم صدقي ولا ترفعي حاجبيك هكذا، هي دحرجت رؤوساً سياسية كبيرة يومذاك، وعائلاتٌ كثيرةٌ ضجّت من اختفاء بعض بناتها، وهو أمرٌ جعل الجسم القضائي يجتمعُ للبحث في قضية المسؤول الكبير الذي يعاشرها، اجتمع غير مرة وحياتك.

خلال التحقيق اعترفتِ المرأةُ أنّها مارستْ معه، المسؤول، الرذيلة في مكتبه، لكن هذا لا يعني أنها بلا ضمير، فهي لم تستغله، أعلنت بثقة بأنه لم يحْمها يوماً! لكنّ بعض جماعة شرطة الأخلاق الذين يتزعمهم المسؤول الثاني هم الذين يحمونها، ويتقاضونَ بدلاً منها لقاء ذلك، والدليل هو الصور التي التقطها لها مصوّر أرمني، غُوسابيان نفسه، هِه ها هي وأخرجت من حقيبتها صوراً تُظهرها وبعضَ بناتها، لم أكن حينئذ معهنّ، مع بعض رجال مكتب

الأخلاق والآداب العامة يلتفّون جميعاً حول مائدةٍ عامرة بالمآكل والمشروبات.

ذاك المسؤول الرفيع المقام أصيبَ بالإحباط لأنها جرّدته من رجولته، إي وحياتك، فهو من كان يحميها وقد أنكرت عليه مجهودَه، لم تحفظ المرأة جميله. اعتكفَ بعد الحادثة في منزله بمنطقة رأس بيروت مغضباً منها ومن الظروف التي منعته من الدفاع عن كرامته.

ضربت حَميةٌ بعد ذلك رؤوسَ بعض المسؤولين، وهؤلاء لا تشتعل الحمية في رؤوسهم دائماً، فأُطيحت هاماتٌ بارزةٌ في مكتب حماية الآداب لأنهم كانوا يتنزهون مع سيدة شبكة الخطيئة تلك، ومع بناتها الضالات المنحرفات.

صار المفكر الراحل وزيراً في الحكومة، وباتت عبارته السابقة (سهاد هي الحكومة، والحكومة كلها سهاد) وصمة عار وسمَ بها الحكومة السابقة، وخصوصاً أنه كان ضدّ الفساد، ويسعى إلى حماية البلد من تفشي الدعارة، ومن دخول الأرتيستات الأجنبيات أرض الوطن المقدسة.

فتياتٌ كثيراتٌ أُصبنَ بانهيارات عصبية بعد عودتهنَّ إلى أُسرهنّ، سلطان لم يقبل الخسارة، تزوجني عندئذ بعقد شرعيّ أبرزه أمام والدي متغطرساً على والدتي التي تجرأت وبصقت بين

عينيه تماماً، فصفعني أمامها، اضطرتْ عندئذ للاعتذار منه بعد توسلاتي الباكية، وصراخي المجنون ليلاً موعد حقنتي المعتادة.

لم أذكر لك أنّ أبي رغم ثرائه كان رجلاً تقياً، يخاف ربه ويجزع من فكرة سفك الدماء، قال لأمي الثائرة المتنمّرة:

- باتَ الرجلُ زوجها، احترمي ذلك.

ورفضَ إرسالَ من يتولى قتله غِيلةً.

وحين فقعت مرارة أبي، ومات قهراً من سلطان على مدللته الوحيدة التي يذلّها أمامه نكايةً بزوجته (أمي) طردني زوجي الموقر مع أمي من قصرنا الجميل، لنعود إلى منزل أبيها الذي أقمنا فيه، ومازلت أُقيم فيه منذ ذلك التاريخ. وبما أني وحيدة أبي الذي لم ينجب في حياته سوايَ فقد ألزمني بالتنازل عن القصر تِركة والدي لي، متجاوزاً الأملاك والأموال المسجّلة باسم أمي، والتي أقسمت بأغلظ الأيمان إنها مستعدة لقتله بيديها ودخول السجن، إن اقتضى الأمر، لو اقترب منها أو فكر في مالها. وبذلك اكتفى عمك النبيل بالحصول على القصر مبتسماً بشماتة:

- هذا يكفي.

ثمَّ أرسلنا إلى منزل جدي لأمي بسيارة أجرة. رفض أن نستخدم سيارتنا، ماتت أمي بعد فترة قصيرة، انفجر دماغها. في اليوم التالي أتى عمك ليعزيني راكباً سيارتها وسلمني المفاتيح قبل

مغادرته معقّباً أنها هديته إلي بمناسبة وفاتها. ألم أقل لك إنه أكبر عكرو...عرفته، أكيد قلت لك ذلك؟ تُخبرينني أنه ضائعٌ الآن،لا يذكر من دنياه شيئاً، فَرحةٌ كُبرى والله. إن شاء ربّ السموات لن تجديهِ أبداً، لعلّ الكلاب المسعورة نهشته نهشاً كما كان ينهشني، ويترك الآخرين يفعلون.

انزعجتِ من حديثي هذا؟ طيب، لكنكِ أنتِ طلبتِ أن أتكلم، وأنا في الواقع أحببتك رغم أنك قريبته، قلت لي إنه تزوج امرأة عشرينية في الآونة الأخيرة، حمار، أتت على ما تبقّى منه، بات ضعيف الذاكرة، لا تعرفينَ إن كان مصاباً بالألزهايمر أو بشيء آخر، زعلتيني والله، كنت أريد له أن يبقى متذكراً كلَّ شيء حتى يُجنَّ من آثامه، لا أنْ يخرّف وينسى، مثله حرام أن ينسى، عقابه في التذكر الشديد ليس إلّا.

حديثي يزعجك وسترحلين؟ لم؟ إبقي معي قليلاً، لا يعرف الإنسان من أين يأتيه الفرح، كأنكِ أعطيتني هديةً ثمينةً في هذا النهار، شكراً لك شكراً، أخبارك حلوة أيتها الصبية، طيب عندما تعرفين عنه شيئاً، أي شيء أرجوك أخبريني، وسأكلفُ من يرفع لي الزينة في كلّ أنحاء المكان. تقولين عيب أن أشمت؟ وأنّ الرجل بات كبيراً في السن، أنا حُرَّة حبيبتي أشمت كما يحلو لي، لو كنت مكاني لفعلت مثلي وربما أكثر. هِه سأشمت وأرقص

كذلك وسأبصق عليه: تفُو على عمّك، يللا اركضي قبل أن أجعل هذه الأثيوبية الطويلة تقذفك من على الشرفة، تسألين عن سلطان، أنا أعرف سلطان، الشيطان أحياناً تكونُ له أسماء، من قال لك إنه ليست له أسماء؟!

(٢)

نعم، أنا هو بعينه يا سيدتي، ماذا تريدين مني؟ بمَ أستطيعُ خدمتك؟ تقولين دلّكِ عليَّ مُحسن بك مِنْ نادي المجد، هو رئيسه طبعاً أعرف هذا الأمر، أها رجل فيه الخير مازال يتذكرني، وجدتِ اسمه في دفتر تلفونات عمّك وهو من دلّك عليَّ؟ ومن يستعمل دفتر تلفونات في هذه الأيام، الآيفون هو سيد الدفاتر، من معه آيفون يستغني عن الدنيا بأسرها، وإلّا ما رأيك أنتِ؟ معي حقّ أليس كذلك، صغيرة وتدركينَ هذه الأمور أكثر مني، نحن طراز قديم، «دقّة» قديمة كما كانت أمي، رحمها الله، تصفُ نفسها، تبحثين عن سلطان بك زعتر، أكيد أعرفه، وكيف لي أن أنساه؟ لكني لم أره منذ سنوات طويلة، انقطعتُ عن زيارة النادي حيث كنت ألتقيه مصادفة، ولم تعد تتسنى لي رؤيته، هل سألت جماعة النادي؟ أها، أين هو الآن يا تُرى؟ أتقولين إنه أخو أبيك؟ أخٌ حقيقيٌ يعني؟ ولم تريه منذ خمس سنوات؟ ولا أبوك رآه؟ توفي والدك منذ سنتين؟ زعلتيني... الله يرحمه، صدقيني لا أعرف ماذا أقول

لك؟ زوجته الجديدة لم تخبرك بشيء، هي أصلاً لم تنتبه لغيابه مدة أسبوع كامل، يا لطيف! الممرضة التي تُعنى به في القصر هي التي أخبرتها بغيابه. وزوجته تلك قامت بإتلاف كل آثاره بمجرد تحققها من مسألة اختفائه: جواز سفره، هويته، حاسوبه، بعض مذكرات كتبها في الآونة الأخيرة، صوره القليلة... أتلفت كل شيء ولم تُبقِ سوى هاتفه النقال؟ يا لطيف، أعطتك إياه الممرضة سراً، ربما لم تنتبه هي لبقائه، ألله أكبر، بالك مشغول عليه، أعرف وأقدر طبعاً، لا أدري ماذا أقول لك؟

لا تريدين مني أن أقول شيئاً، تبغينَ فقط أن أحكي؟ حاضر سأحكي لك كل ما أعرفه عنه، وأنت اختاري ما تريدين من كلامي، خذي ما يلائمك، واتركي لي الباقي لأيام قادمة، اختاري من سلالي ما تشائين أيتها السيدة، أصلاً هي باتت فارغة إلا من ذلك الماضي الذي لا يموت.

سأحكي لك كلّ ما أعرفه عن سلطان، وسأبدأ بلقبه أوّلاً، فهم كانوا يلقبون عمك يا سيدتي بسلطانوف، أو الجاسوس الأكبر، ربما شرارة العرب، وأحياناً الثعلب... وغير ذلك من الألقاب كثير، أما نحن جماعة الجمارك فقد لقبناه بسيّد الدولار، وأحياناً بالسلطان الأعظم.

ذكرتني بالأيام الماضية، يَاه... تعرفين أنك تشبهينه قليلاً؟

يا سبحان الله، فيك منه الكثير... الآن تنبهت. وأنا أيضاً سمعتُ بزواجه بامرأة ثرية تدعى جُلنار فستق، وهي فستق مقشّر صدقيني، وسمعتُ عن القصر الذي أقاما فيه مدة قبل أن يطلّقها ويبيعه، كانت زوجته الثانية، نعم أنا متأكد يا ابنتي كانت الثانية في حياته، إلّا أنني لا أعرف عن ذلك العهد شيئاً، كل ما أعرفه أنه كان يحبها بجنون، وأن والدها أورثه قصره لكثرة تعلقه به، وبأخلاقه الرفيعة، ومن رفعة أخلاقه طلّق ابنة الرجل وباع له قصره هاهاها، اعذريني لكنه كان رجلاً داهيةً بحقّ.

تطلبين مني أن أكون حرّاً صادقاً بحديثي؟ طيب يا ستي كما تريدين، سأقول كل ما عندي وأمري لله، إسمعيني جيداً. تعرفت إلى سلطان بك بعد ذلك بمدة، أي بعد طلاقه الذي أشرتُ إليه، مع أني كنت قد لمحته مرات مع زوجته تلك دون أن نتعارف، وبعد أن عرفته تتبعت أخباره فترة طويلة إلى أن شغلتني الحياة، دنيا لئيمة نركض فيها كالحمير البلدية، وبعد ذلك ننسى، تقولين إنه لا يذكر شيئاً الآن، وربما لا يتذكر اسمه، يا لطيف وبعيد الشر عني، نهاية شريرة بشرفي، لا أتمناها حتى لأعدائي.

لنعد إلى حديثنا، ماذا كنت أقول؟ نعم، لقبناه بسيد الدولار وليس نحن من خلعَ عليه هذا اللقب بل الأميركيون والفرنسيون والروس وربما الإنكليز كذلك، كلهم كانوا يطلقون عليه باعتداد

«السيد رب الدولار» مسيو دولار اختصاراً. أكيد، يه طبعاً كانت له شهرة دولية،وهو قد صال وجال في غرب الكرة الأرضية، لكن إن كان الرجل في لبنان فسوف يعرف طريقه حتماً، على كفالتي، خذيها مني لن يضيع وسيعود إليكم، وأنا واثق بما أقول.

تعرفت إليه يا سيدتي عندما كنت رئيس التفتيش في جمارك العاصمة، وكانت الصحافة تشنُّ هجوماً عنيفاً على الجمارك آنذاك، المغارة يصفونها، مغارة علي بابا الشهيرة هاهاها، لا بد أنك سمعت قصصها وأنت صغيرة، لم تسمعي بها؟ لا بأس، لا تهتمي بكل ما أقول، لكن أنا سأهتم، إذ كيف يمكن لي أن أنسى؟ لنعد إلى موضوعنا، إلى السيد البك قريبك، يعنيك أمره كثيراً وهو بمثابة والدك بل أعز، أفهمك أقسم بشرفي.

ذات يوم وصلتني يا سيدتي وشاية، خَبرية عن وجود كميات كبيرة من البضائع المهرّبة على متن سفينة لبنانية قادمة من إحدى الدول الأوروبية المتوسطية، والمواطنُ الشهم الذي قدّم الوشاية كان معنا، ينتظر قبض مكافأته على أحرّ من الجمر، ونحن رجال الجمارك عندما لا نصل إلى اتفاقٍ مع المهربين كنا نضطرّ ممتعضين إلى مصادرة بضائعهم المهرّبة.

قبل دقائق من رسوّ الباخرة قرب الرصيف وصلت سيارة فاخرة ذات لوحة رسمية، توقفت أمام مبنى الجمارك تماماً، يبدو

أنهم اتصلوا بالمدير، الحقيقة لا أعرف من اتصل، فذلك سرّ من أسرار الدولة العَلية، ونحن نقدّس أسرارَ دولتنا. اتصل بنا المدير العام، وقال أخبروا السيد سلطان الموجود بين الركاب بأنّ السيارة الرسمية في انتظاره.

بعد قليل تمّ تثبيت سلم الباخرة على الرصيف، التعليماتُ في حوزتنا، يُمنَع نزول الركاب حتى ينتهي التفتيش.ضربنا طوقاً بشكل خفي، في ذلك الوقت تعرفت إلى البك سلطان زعتر عمك كما تقولين أليس كذلك؟ يشهد الله أنّ رجلاً على شاكلته لا يأتي إلى العالم إلّا مرة كل خمسين سنة، نصف قرن بالتمام والكمال. أنزلنا السيد سلطان وأوصلناه إلى السيارة الرسمية التي كانت بانتظاره. وسأعترف لك أنّ وضع كميات كبيرة من الهرويين الموضّب يجعل السترة غير مستوية على جسد صاحبها، ويلفت الانتباه إليها، لكن سلطان لم يكن يعبأ، مرّ أمامنا مزهواً كطاووس. لم يكن الرجل يبالي بشيء.

عندما دلف الرجل إلى السيارة خلع سترته الجلدية الفاخرة ورتّبها بعناية، حشر إلى جواره حقيبتين ممتلئتين بالعطور وبالسترات الجلدية الناعمة بعد أن عجز صندوق السيارة عن استيعاب كل حقائبه، قال لنا وهو يودّعنا:

- حافظوا على ما تبقّى من أغراضٍ لي في ذمتكم، وسأرسل من يأخذها لاحقاً.

بعد توديعنا السيد سلطان وفق الأصول، ارتقينا سلّم الباخرة اللولبيّ، ودخلنا القُمرة لنبدأ التفتيش. نعم، كالعادة كل سفينة عائدة من رحلة خارجية لا بد من أن تكون محملة بالبضائع المهربة، ومن صلب مهماتنا مصادرة بعض هذه البضائع إذا اقتضى الأمر. لكني خلال حياتي المهنية لم أصادف سفينة محملة بكل هذه الكمية من المهرّبات، أمر لا يصدّق. سِحرٌ، كان الأمر أشبه بالسحر، صدقيني سيدتي، كلامي كله تافه بالمقارنة بما ضبطناه في ذلك النهار، صناديق صغيرة للغاية كانت تحوي من البضائع المهربة ما يكفي لفتح محل صغير لبيع التحف مثلاً، وهو أمر أثار إعجابي وتقديري، ولا سيما لما قد رافقه من ترتيب البضائع وتصنيفها الدقيقين وفق الماركات والأنواع. أحد زملائي لم يتمالك نفسه عن القول:

- حتى في مستودعاتنا الجمركية لا نجد ترتيباً دقيقاً للبضائع المصادرة، من المؤكد أن هناك إصبعاً في الجمارك وراء هذا الأمر، فوضع البضائع في المخابئ مطابقٌ للوائح التخزين الجمركية حرفياً!

تمّ ارتكاب خطأ فاضح فقط لا يمكن التساهل معه، فوفق لوائح الجمرك لا يجوز وضع الموادّ المتفجرة في أماكن حارة.

والواقع أنهم خبأوا طلقات الرصاص المهرّب قرب موقد الباخرة. وهذا خطأ لا يجوز الوقوع فيه إطلاقاً. عيب! فيما عدا ذلك كان كل شيء على ما يرام: الأسلحة الرشّاشة، القنابل اليدوية، الساعات، العطور، الملابس النسائية الداخلية المذهّبة أو المفضضة، كلها وُضعت بشكل منفصل، وفي الأمكنة الملائمة تماماً.

علّقَ أحد الزملاء قائلاً:

- إن لم نوظّف عندنا في المخازن مهرّباً كهذا فسوف نضيع ذات يوم بسبب الفوضى التي تسود عنابرنا، إذ لا يعجبني ولا يعجبكم طبعاً وضع الأطعمة الفاسدة إلى جانب الألبسة الحريرية الفاخرة.

موظف آخر مدَّ ذراعه داخل فتحة في إحدى القمرات، وراح يخرج كميات هائلةً من مساحيق التجميل، وحقن المورفين، والشعور المستعارة والسوتيانات الفاخرة، كوكتيل عجيب؛ التقط الموظف سوتيان جميلة أعجبتني بعد أن رفعها متفحصاً، وهو يطلق صفارة قصيرة، خبّأها في جيب سترته غامزاً:

- مجرد هدية صغيرة لزوجتي الغالية، اليوم عيد ميلادها، أترون الصدفة؟.

بلغت الدهشة بالربان حدّاً عظيماً عندما عاين كلّ ما عثرنا عليه، فعلّق:

- مستحيل أن توجد كل هذه البضائع على متن هذه الباخرة المخصصة للركاب فقط. لا يمكن للسفن العملاقة أن تحمل كل هذا الوزن، من أين أخرجتم كلّ هذه الأشياء؟
- من مؤخرة السفينة، قلتُ له، العنبر الخلفي مليء بالمهرّبات.

قال الربان الثاني:

- لا تفتّشوا أكثر من هذا لأنكم ستخرجون المزيد، ونحن لانتحمّل مسؤولية ذلك!

كيف أنسى وقد كتبت جرائد تلك الأيام عن الحادثة: «التحرّي عن كيف ومِن قِبل مَنْ تمّ إخفاء كلّ تلك البضائع؟ هذا موضوع البحث الآن وهو مَثار فضول جارف، أتذكر ذلك جيداً».

من السهل العثور على البضائع المهرّبة، إلّا أنّه من المستحيل ضبط أصحابها، لا طاقم السفينة ولا ركابها يعترفون بملكيتهم لها.

لن أطيل عليك، عفواً ما اسم حضرتك؟ زهية؟ نعم يا ابنتي يا زهية، سيدة أم آنسة هناك فرق طبعاً، أقول في ذلك اليوم تعرفت إلى السيد سلطان زعتر، فيما بعد عرفنا أن القسم الأكبر من البضائع التي عثرنا عليها في تلك الباخرة، والتي لم يعترف أحدٌ بملكيتها تعود إلى السيد سلطان وحده، وقد سلّمناه أغراضه تلك بدون أي

نقصان، وذلك للأمانة ومن باب المصداقية الرسمية، فلا شيء يضيع عند الدولة!

بعد ذلك التقيته كثيراً وهو عائد من رحلاته الأوروبية والروسية والأميركية، فنحن بلاد مفتوحة كما تعرفين، إلا أنه فيما بعد، بزمنٍ طويل كما أعتقد، ولسببٍ ما حُرِمَ الدعم السياسيّ الذي كان يتمتع به، ولم تعد السيارة الرسمية تأتي لاستقباله، وليس هذا فحسب، بل وصلتنا أوامر مشدّدة من فوقُ تطلب منا تفتيشه بلا هوادة، ونحن عبيد مأمورون، ما الذي يمكننا فعله غير تنفيذ الأوامر؟

لا أدري إن كان سبب ذلك أنّ الإشاعات كثرت، أم أنّ الصحافة دخلت على الخطّ، أم أن من كان يدعمه قد فقدَ موقعه؟ إنّ الأمور عندنا دائماً تسير على هذه الشاكلة، لا ثبات لشيء. مرة تقضي التعليمات بالتساهل مع مسافر، ومرة أخرى تأتي التعليمات مطالبةً إيّانا بالتشدد في تفتيش المسافر عينه. هذا أمرٌ ضارٌّ سيدتي، البلد بحاجة إلى الثبات، ينبغي أن يعرف موظفو الجمارك من يتوجب عليهم تفتيشه، ومن لا يجوز تفتيشه، حتى لا تتفشّى الأخطاء، يِه!

ذات مرة كان السيد سلطان عائداً من رحلةٍ جديدة من فرنسا، وقد وصلتنا أوامر مشددة بتفتيشه تفتيشاً دقيقاً، حاول الاعتراض، وعندما أدرك جدّية الموقف أظهر استغرابه العميق.

- هل تغيّرت الحكومة يا تُرى؟ ما الذي يحدث؟ لو تغيرت

الحكومة كنت سمعت...

- لم تتغير الحكومة. قلنا له.

- هل تغيّر الوزير إذاً؟

- لا يا سيدي.

- ما الذي يجري إذاً؟ هل تغير الوضع أم انقلب النظام؟

- تغيّر الموقف فقط، سنفتّش، قلتُ له بنعومة.

في الواقع كان سلطان بك على حقّ، تعاطفت معه داخلياً، لن أكذب عليك.

على كلٍّ فتشناهُ يا سيدتي، فتشه موظف مختصّ في غرفة خاصة وأخرج من ملابسه، أخجل من ذِكر المخابئ التي ابتكرها، كأن له جسد أنثى تحت ثيابه، خبّأ في السوتيان التي لبسها مجوهرات ثمينة للغاية وقاسية كثديين، ولبسَ مشدّاً نسائياً وضعَ فيه أكياساً رقيقة من الهرويين.

يبدو أنه كان يعرف بتغيّر الموقف، في مرات سابقة حمل بعض هذه الأشياء علناً في حقائب يدوية بارزة تحمل ماركات عالمية Louis Vuitton,Chanel,Christion Dior وكلّما أخرج الموظف من مخابئ جسده مهرّبات جديدة، كان السيد سلطان يشهقُ مستغرباً:

- يا ألله، هذه الأشياء ليست لي، يا ربّ أيّة امرأة منحطة

حشرتْ هذه الأغراض في ملابسها التي أعارتني إيّاها.

ثمّ يلتفت إلى الموظف باسماً:

- تعرف أحبُّ ملمس الملابس النسائية على جسدي، فهي ناعمة للغاية.

طوالَ حياتي لم أصادف رجلاً بذكائه يا ابنتي، يقولون إنّ الوسامة تناقض الذكاء، ربما، أقول ربما لكنّ السيد سلطان زعتر كان رجلاً استثنائياً جدّاً، خرق كلّ القواعد وهشّم كلّ المقاييس.

(٣)

نعم تفضلي مدام، أهلاً بك، بمَ أستطيعُ خدمتك؟

تسألين عن حادثة طائرة الأموال التي تمّ تهريبها؟ يعنيك سلطان زعتر الذي ارتبط اسمه بالقضية؟

يِهْ ما هذه الفوضى ومن أنت حتى توجّهي إليّ مثل هذا السؤال الخطير؟ تطرحينه بشكل شخصي؟ أها هذه مسألة أخرى... كان ذلك منذ زمن طويل سيدتي، أصلاً فُتح في القضية تحقيق ثمّ أغلق المحضر كما يُغلق كلّ شيء في هذا البلد، فيبقى معلّقاً كالمرأة الوقْف، هاهاها تعرفين ماذا تعني «امرأة وقف» لا تعرفين طيب أعتذر، اغفري لي زلتي يا سيدتي.

أنت تسألين عن سلطان زعتر أساساً، هو كل ما يعنيك من القضية... سؤالك عن حبيبٍ والله. كنت أحبّ سلطان هذا أكثر من نفسي، وإلا ما سمحت لك بتوجيه مثل هذه الأسئلة... تلك كانت مغامرة حقيقية ورب السماء، صدقيني، كان عمّك كما تقولين أليس كذلك؟ كان رجلاً مسكوناً، أقسم بشرفي الذي لا يغلو عليه

شيء، إنه كان في جوف الرجل جنيٌّ يدفعه دائماً إلى فعل ما يقوم به، أنت لا تعرفين عنه شيئاً، رجل محترم بنظرك طبعاً، مؤكد فهو عمّك، أخو أبيك، الآن فهمت، وضع طبيعي، وهذا يؤكد كلامي ولا ينفيه، الرجل ذو وجهين هاهاها لا ليس صحيحاً، الرجل صاحب مئة وجه وشخصية كحال الكثيرين في هذه البلاد، لكنه أذكاهم أشهد له واللهِ بذلك، ومستعدّ للقسم أمام هيئة محلّفة، لكن ماذا ستفيد شهادتي الآن؟ تقولين إنه ضائع، وإنه لم يعد يعرف «الخمسة من الطمسة» يا لطيف يا ستّار، وإنّ امرأته قد أحرقت كل أوراقه الثبوتية، وأتلفت اللابتوب الذي كان يستخدمه كذلك، وكلّ ما يشير إلى وجوده في الحياة، امرأة حاذقة بشرفي، أنت تستغربين فقط أنها تركت له هاتفه، الشيء الوحيد الذي لم تتخلص منه، ولمَ تحتفظ به ما دام لا يستخدمه منذ فترة طويلة؟ لم يُجرِ ولا أي اتصال عبره منذ أكثر من سنة تقريباً، مشكلة حقيقية. شرمو... هذه المرأة لكنه يستحقها بجدارة، رجل مثله لا يستحق إلا امرأة على شاكلتها ها ها ها، اعذريني، لكنها الحقيقة الفاقعة، وأنت طلبت الصراحة، ووعدتني بعدم الزعل، لا زعل إذن؟ نحن متفقان... استغربتِ أنْ لا صُورَ لديه، مع أنّا بتنا نحيا في عالم الصّور، أصلاً كلّ ما حولنا صُوَر حبيبتي، تعرفين أنه كان ينفر منها؟ اسأليني أنا عن الأمر، كان يكره الصّور بشكل هائل، وللرجل فلسفته في ذلك، مرّة قالها لي

ونحن نشرب كأساً في مدريد: تعرف يا بو سَمْرا، هو كان يدللني في ساعات صفائه، الصّورة يا صديقي تقبض على اللحظة وتجعلها ثابتة في الحياة، تُطمئنك إلى منجزك فتكسل، وأنا لا أريد تثبيت أية لحظة عشتها في الحياة، أريد لعمري أن يكون قنبلة دائمة الفرقعة لا أحد يقبض عليها، أكره الثبات والمَوات، فلتنفجر لحظات حياتي ولتخلّف بعدها آثاراً ترونها، أنا قنبلتكم الموقوتة في هذا المكان، أعيد ترتيب أوراقكم أنّى يطيبُ لي، وكما أشاء.

رجل داهية حقاً، لكني كنت أحترمه صدقي أو لا تصدقي، فهو كان يفعل ما يفعل ولا يستحي، ولا يحاضر عن العفّة، طبعاً تعرفين كاتبنا الشهير سعيد تقي الدين، صاحب المقولة الرائجة (ليس أبلغ من القحباء حين تتحدث عن العفّة)، لا تعرفينه؟ بسيطة، كان بإمكان عملك شأن كثيرين أن يرتكب أفعاله الشنيعة، من ثمّ يحاضر حول العفاف والتعفف، لكنه كان أنبل من ذلك وأشجع. لذلك سأحدثك الآن عمّا تريدين، وبعدها أعود وإياك للحديث عن مدريد وعن أنقرة إذا أحببت.

اسمعي يا ستي تلك كانت قضية كبيرة والله، يومها قمت بنقله بواسطة طائرتي الخاصة كما كنت أفعل غالباً، فأنا سائقه الجويّ الخاص إذا أحببت تحديد هويّتي، لذلك وجدتِ اسمي ضمن قائمة الأسماء القليلة المسجلة على هاتفه، مؤكد أنه لم يحذفني

من قائمته حتى لو لم يحدثني منذ مدّة طويلة. كانت الرحلة من بغداد إلى لبنان، هل أخبرتك أني أسست شركة طيران خاصة بي، وإن لم يكن الأمر سراً؟ شركتي كانت الوحيدة الحاصلة على إذن بالهبوط في مطار بغداد، حيث توليت لفترة غير قصيرة نقل موظفي شركة أمن أميركية، يقومون ببعض الإجراءات الأمنية الخاصة التي أثمرت فيما بعد، بزنس وحياتك؛ المواقف والمشاعر القومية لاعلاقة لها بالأمر، تلك في القلب والرأس، لكن الأعمال مسألة أخرى صدقيني، أحضروني إلى مكتب المدعي العام المالي بعد وقت، لم أعد أذكر اسمه، فراح يمطرني أسئلة عن الموضوع، أراد أن يعرف هل ثمة ترتيبات خاصة مُبرمة مع الأميركيين تسمح لطائرتي بالهبوط والإقلاع من مطار بغداد الدولي؟ أخبرته أن طائرتي مجرد سيارة أجرة، تاكسي أي وحياتك، وأننا لا نسأل الركاب عما يحملونه فيها، يه عيب هذه حرية شخصية نقدّسها، وأنْ لا علاقة لنا بالمنقول على متنها، وأذكر أني سألته:

– ولكن ما الذي تمّ نقله يا سيدي حتى تبدو مهتماً بهذه الطريقة؟

فقال لي بلؤم لم يعجبني، إذ بدا عدائياً للغاية:

– نقلتم بَلَحَاً يا حبيبي، كميات هائلة من البلح، إياك أن تتذاكى يا كلب، هل فهمت؟

وأنا سريع الفهم سيدتي، اضطررت للصمت أمام عينيه المشتعلتين، مع أن كرامتي قد آلمتني بشدّة، سخر مني الرجل ثمّ أخبرني ووجهه «ينقّط» سمّاً أنّ الأشخاص الموقوفين الذين رفض الكشف عن هوياتهم وجنسياتهم، كأني لم أكن أعرف، قد ضُبط في حوزتهم لدى وصولهم، صباح أول أمس كما قال بدقة، إلى مطار بيروت الدولي على متن طائرتي الخاصة الآتية من بغداد، مبلغ عشرين مليار دينار عراقي من الطبعة الجديدة، أي ما قيمته ١٢ مليون دولار تمكنّا من تهريبها من العراق. يا عيب الشوم يا مدام علينا! هكذا أنّبني، وأكد لي أن التحقيقات لن تتوقف حتى يحدد مصدر هذه الأموال، وسيعرف تماماً إذا كانت مسروقة، ومن هي الجهة المستفيدة من العملية؟ وذكر لي اسم سلطان حبيبي، واسم مسؤول مهم في حزب شهير، وصاحب شركة صيرفة يُدعى بشير مؤكداً أن الطائرة نقلت هؤلاء مع الربان الذي استأجرته أنا، أو بالأحرى شركتي اللبنانية الخاصة، التي تضمّ ضمن أسطولها هذه الطائرة اليتيمة، بشرفك مدام مش دولة عينها ضيقة؟ يعني يتركون كلّ ما يحدث في مطارهم ومرفأهم ووزاراتهم ويلتفتون إلى طائرتي الصغيرة المتواضعة؟ رذالة حقيقية، ضاقت أعينهم عن رؤية هذا المبلغ البسيط الذي لا يملأ عين أحد. لكن على مَن؟ فعمّك سلطان الله يرده من غربته، ويفكّ أسره إن كان في أسر، أدهى من

أي تحقيق. فرغم أنّ المحقق قال له « إن نقل مبلغ نقدي بهذه الكمية وبواسطة طرف يعلم مسبقاً أن هذا الأمر يخالف الأصول المرعية في قانون تبييض الأموال» لهو أمرٌ خطير إذا لم يستحصل مسبقاً على إذن من السلطات في مصرف البلد، فإنّ ذاك الأخير أجاب بحذق أنه أحضر المبلغ من الصراف لإبداله من شركة الصيرفة بالدولار الأميركي، وأن لديه عقداً تجارياً مع القوات الأميركية في العراق لشراء سيارات مصفحة من أوروبا، وأنّ الأمر مجرد خدمة وطنية خالصة يؤديها كما ترين، ثمّ إن بلدنا الحبيب لا يمنع إدخال عملة نقدية في إطار حرية نقل الأموال، فنحن في بلد الحرية.

أفحمه صدقيني، أذهل عمك المحقق، وبقي على شهامته فوق ذلك، فقد برّأ مَن معه. لذلك يعجبني هذا الرجل، إذ أكد أنه التقى المسؤول الحزبي والصيرفي عن طريق الصدفة الخالصة في مطار بغداد، رَجاه كلاهما لينقله معه، ففعل الرجل ببساطة، لأنه لم يكن يرفض مساعدة أحد.

وسأعترف لك سيدتي بأن محامي شركتي الأستاذ عثمان كان حذقاً للغاية، فقد أخبر الصحيفة التي سألته عن الموضوع بأنه « ما مِنْ قانون لتقييد حرية نقل الأموال إلى وطننا الحبيب، وأنّ مالك الطائرة وطاقمها لا يدققان بأمتعة الركاب وحمولاتهم، عيب، وأن المسؤولية تقع على عاتق مديرية الجمارك في البلد المضيف،

أؤكد لكم أن ما من مسؤولية تقع على عاتق شركتي، أو على عاتق رئيسها، الذي هو أنا طبعاً، إذ ليس لديه علاقة بما ينقل على متن طائرته». وحين اتصلت بي الصحيفة عينها اكتفيت بالتعليق على الموضوع قائلاً: «إنّها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها سلطان بك باستئجار الطائرة للذهاب إلى بغداد، بل هو يستأجرها للذهاب إلى لندن وإلى مدريد وإلى عدد من البلاد التي لا تحتاج لأكثر من ست ساعات طيران للوصول إليها، وليس من ضمن مسؤولياتنا التحقق من محتويات الطائرة، فنحن نحترم خصوصية ركابنا».

وانتهى التحقيق سيدتي، بعد تدخل رجل نافذ جدّاً، إلى التأكيد أن كلّ شيء شرعي في هذه العملية الناجحة، واتصل المسؤولون في الجمارك بالقاضي المحقق وأبلغوه بالأمر، وتمّ إقفال ملف القضية.

تريدين مني الآن العودة إلى مدريد، لا أنت مهتمة بلندن أكثر؟ ماذا كنا نفعل هناك؟ هذه قصة أخرى، لندن في حدّ ذاتها حكاية، لكني سأحكيها كرمى لعينيك فقط، تذكرينني بحبيب قلبي سلطان، لذلك لن أبخل عليك بالكلام.

مصيفنا كان لندن، نزورها في كلّ صيف مرّة أو مرّتين وأحياناً أكثر وفق مقتضيات أشغالنا؛ سلطان بيك ينهي فيها أعماله، وأنا

أستمتع بالإقامة هناك على حسابه، كان رجلاً كريماً، يده مبسوطة كسهل، يعرف كيف يسعد الناس، وفي الوقت الذي كان يعمل فيه، كنت أنا أجوب شوارعها العريضة النظيفة، وأتأمل قصورها التي تضجّ بعبق التاريخ، الجماعة في تلك البلاد يحافظون على تاريخهم، ونحن مختصون بتدمير كلّ ما يؤرخ لإنجاز في حياتنا، هل زرت تلك المدينة الجميلة؟ حتماً ستزورينها في يوم ما، تحفة مُصوّرة مدام، أرأيت قصر بكنغهام المهيب؟ لا، لم تريه؟ أنا فعلت ذلك، دخلته مرة حين كان مفتوحاً، فهو يفتح للزوار مرة في كلّ عام، حدائق مذهلة وورود تسبّح خالقها، الجنة التي يخبروننا طوال الوقت عنها، مؤكدين أنّ الانفجارات هي السبيل الأسرع إليها، تقيم هناك في أنحائها، نُفني حياتنا في الانتظار، وهم يصنعون جنتهم بأيديهم، احتجزوها لناسهم فيما يبدو، وتركوا لنا الجحيم نسرح ونمرح فيها ها ها ها الأفكار، الأفكار يا مدام طيور محلقة لا نستطيع القبض عليها، المهم أنّ ٧٧٥ غرفة و ٧٨ حماماً تتوزع في القصر الرسمي لدولة الباوند والجنيه الإسترليني التي أغرتْ عمك سلطان، بينما ثلث سكان العالم يحيون في العراء، ويتبولون على الحشائش الندية أو على الرمال الساخنة، كنت أفكر في ذلك أحياناً! مجرد أفكار عائمة تطرأ على رأس الحمار... والتّحف، التحف يا سيدتي ثروات مجمدة تشعل العقل البارد، لقد أُعجبت

للغاية بالفنانين الذين أبدعوها.تبارك من وزّع المواهب والأقدار!
صرت ثرثاراً أعرف، السن له أحكامه التي لا فرار منها.

تسأليني أين كنا ننزل؟ كنّا نقيم دائماً في فندق Marriot hotel Marble الذي أحببته كثيراً، وهو يبعد مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام عن شارع اكسفورد العظيم، فيه كنت أهتم بلياقتي البدنية في حنايا مركزه الرياضي الفخم، وأنعم بـ Spa، أسبح وأتخبط في أحضان المياه البلوريّة ليل نهار مستمتعاً بوجباته اللذيذة وبنبيذه الرائع، عالم فاتن أفتقده الآن بشدة. وحين أسأم كنت أتمشى أو أستقل المترو باتجاه حديقة الهايد بارك. أمّا عمك فقد كان ينجز أعماله في شقته الفخمة التي يستأجرها في جراند بلازا القائمة في تلك المنطقة الشهيرة، عنيت منطقة الهايد بارك، يقضي فيها أعماله مع أصدقائه من أبناء المنطقة المجاورة، بعضهم أمراء وبعضهم رجال أعمال أثرياء من بلدان مختلفة، يقدم لهم خدمات شتى، ها ها ها تعرفين طبيعتها؟ لا تعرفين، غريب أمرك مدام معقول ما عندك فكرة ولو؟ يعني مخجول كيف أقولها لك حبيبتي هي مهنة تضمن استمرار الجنس البشري، وازدهار أعضائه، وخصوصاً جنسنا نحن الشرقيين ها ها ها، أها فهمت طبيعة هذه الخدمات، برافو عليك نعم نعم خدمات جنسية بالطبع، الجنس محرّك العالم حبيبتي، يعني ماذا نفعل؟

زبائنه مسؤولون على درجة عالية من الأهمية، يحملون هموم الدنيا فوق رؤوسهم وفي صدورهم، حرام، وكان عمّك بخدماته الإنسانية يساعدهم على التخفف منها، فيقدم لهم عبر وكالته المعروفة جداً لديهم فتيات من كل جنس ولون، لا،لا لسن كلهن لبنانيات، أو مشرقيات... كوكتيل حبيبتي، بضاعة وطنية وأخرى أجنبية: تشيكيات رومانيات، مجريات، أفريقيات، نعم نعم جنسيات مختلفة، كان عمك رئيس جامعة الأمم المتفرقة في هذا الميدان، ها ها ها قدّم والله خدمات قومية جلّى. مسؤولون كبار، أمراء مهووسون بالنساء، وهم كثر، أكثر مما نتخيل حبيبتي، جوع تاريخي وحياتك، الله لا يشبع بطونهم، لا ليس بطونهم بل... أنت تعرفين ماذا أقصد، أخجل منك، لكنك مثل ابنتي، فلا بأس من الكلام...

حكى لي عمّك مرة عن أحد أبناء حكام منطقتنا الأشاوس بأنه كان لا يقبل إلا بأن تُشحن النساء المطلوبات إلى بلاده رافضاً الذهاب إلى لندن، وذلك لاعتبارات وطنية خالصة، حيث يستقبلهنّ على أرض الوطن في منزل خاص، أو في مجمع له معروف بـ « يخت الكلاب» يستحضرهن أربعاً أربعاً أو ثلاثاً ثلاثاً، يعاشرهن جماعةً مع بعض، فهو يحبّ الجماعة في كلّ شيء خوفاً من اتهامه بالتفرد أو بالعنصرية. وهو إلى ذلك رجل وطني، عمك شهد له

بالأمر غير مرة. وهو والشهادة لله كان يحب عمك سلطان كثيراً، ويجدهُ عالي الذوق والمزاج في اختياره الفتيات، لكنه كان يُفهمه المرة تلو الأخرى أنه يفضّل بلاده الحارة للاستقبال Delivery، وللقيام بكل أنواع نشاطه على ذرات ترابها، بدل الانتقال إلى مدينة الضباب كما يسمونها!

أنا برأيي أنْ لا مشكلة مع كلّ هؤلاء، المشكلة نبتت مع أولئك الذين كانوا يفضلون الغلمان، والذين اشتاقوا إلى أفعال من سبقهم في أوروبا القرون الوسطى، وإلى أجدادهم أيام الأمويين والعباسيين، يستملحون هؤلاء ويتركون النساء. يا ربّي، أيها الإله العظيم... النساء جنة الله على أرضه لو يدرون، تعرفين أنك جميلة جداً يا صغيرتي، لكن لا أريدك أن تسيئي الظن بي، لستُ كعمك سلطان في هذا الميدان، على كلّ هو كان صاحب أصول في مهنته، يؤمن بحرية الخيارات ويلبي رغبات الزبائن على تنوعها وغرابتها، والكل كان يحب التعامل معه؛ فإجراءاته نظيفة للغاية، وهو حريص على إتمام كل شيء بهدوء وبروية، لذلك كانت تغضبه التصرفات الرعناء لبعض الشبان من أولئك الأثرياء، حين يزعجون الشرطة البريطانية بسياراتهم الفارهة، ويخرقون بقيادتهم المتهورة في الشوارع الأنيقة كل القواعد والأصول، فيضطر هو لتحمل

تجاوزاتهم، والذهاب أحياناً إلى مراكز الشرطة والتكفير عن هذه التجاوزات، كان قلبه كبيراً حبيبتي، كبيراً للغاية.

وقد حدث مرة أمرٌ سيِّئ تماماً، أغاظني وأغاظه، ولأول مرة رأيت عمك غاضباً على تلك الشاكلة وسأصدقك القول إنه لم يعرف في البداية من سرّب عنه تلك المعلومات الخطيرة، وتسبّب له بتلك الفضيحة السياسية على المستوى البريطاني الأرفع... تخيلي أنه اتهم بتقديم مبالغ ضخمة كدعم مالي لقيادة « حزب المحافظين»... تصوري.... لا ترفعي حاجبيك على هذه الشاكلة، صدقيني جرى ذاك الأمر في يوم من الأيام.

فحسب معلومات وتصريحات ديبلوماسي بريطاني طبعاً مدام، وليس بناء على معلوماتي الشخصية أن عمليات تبرع لنحو اثنين وسبعين ثرياً من بريطانيا وروسيا وأوروبا والشرق الأوسط ودول أخرى قد تمت خلال ثلاث عشرة سنة ماضية تقاضى خلالها أولئك الأثرياء مبلغ ثلاثة وأربعين مليون جنيه استرليني تمكنت بواسطتها قيادة المحافظين، وهم جماعات اليمين الأكثر تطرفاً على رأس الهرم الحاكم، من تجنّب السقوط من الحكم تحت ضربات حزب العمال على مدى ثلاث سنوات، وعمك واحد من أبرز المتبرعين بالمال، يا باطل، يا لهذا التهريج معقول؟ لا بل إن صحيفة «ديلي ميل» البريطانية أفادت أن زوجة السيد سلطان،

وكان ترتيبها الرابعة بين نسائه قد اعترفت أنه تاجر أسلحة سابق، وأنه متورط فعلاً في الفضيحة التي أسقطت وزيراً ما عدت أذكر اسمه، فذاكرتي اللعينة بدأت تخونني، والتي تسببت بدخوله السجن سنوات عدة.

تدركين سيدتي أن المسألة برمتها سابقة ندر مثيلها في الحياة السياسية البريطانية منذ استقالة وزير دفاع المملكة في السبعينيات تحت وطأة فضيحة كريستين الجنسية، لم تسمعي بها؟ غريب، لكنها، وأعني الزوجة اضطرت في وقت لاحق وتحت وطأة صفعات عمك الهادرة الى سحب اعترافها ذاك، والاعتذار إلى الرأي العام الإنكليزي عن التضليل الذي مارسته، والادعاء في المقابل أنها كانت تحت تأثير بعض المهلوسات التي تناولتها عن طريق الخطأ! تبرير معقول.

لكن أعترف لك بصراحة أنّ مصالحه في تلك البلاد الباردة قد أصيبت بأضرار جسيمة بعد تركز الأنظار عليه، وإثر الحديث عنه في الصحافة والتلفزيونات العمالية المعارضة؛ تأثرت مصالحة كثيراً مدام مما اضطره الى تخفيف زياراته للندن إلى أن توقفت فيما بعد تماماً، وخسر محسوبك، الإقامة في فندق ماريوت الذي كنت أعشق أسرَّته اللينة، وأغطيتها الحمراء النبيذية الفاقعة، هل رأيتها يوماً؟ لا، لم تفعلي! أتمنى لكِ أن تريها.

(٤)

على الصفحة الأولى للجريدة الأكثر شهرة في البلاد خبر بالخطّ العريض:

آل زعتر، السيدة زهية عاصم زعتر تبحث عن عمها المختفي منذ خمسة أشهر، رجل سبعيني أو هو في بداية العقد الثامن من عمره، خرج من قصره بملابس نومه الزرقاء، من يتمكن من إرشادنا إليه سيكافأ بمبلغ مئة ألف دولار عداً ونقداً.

السيدة زهية امرأة ثرية، ثروتها تتجاوز المليون دولار، ورثتها عن زوجها الذي كانت تحبه أكثر من عينيها.

تزوّجا وسافرا إلى ليمبومباشي، اشترى الرجل قطعة أرضٍ من صديقه السوري الذي سبقه للعمل هناك، أراد زوجها بذلك حلّ أزمة الصديق الاقتصادية المزمنة، وتخليصه من الديون المتراكمة. حفر الأرض ليقيم دعائم يبني عليها محلاً للأخشاب يقتطعها من غابات تلك البلاد السخية، فوجد التراب ينزاح عن صخور خضراء بديعة التكوين، نحاس خالص ساحرٌ لم يكن قد رأى مثله من قبل.

لم يعرف سابقاً أن لون النحاس الأصلي، وقبل تصنيعه رائع وعلى هذه الشاكلة الفنية المذهلة «مَلَكيت»، قطع كبيرة متماسكة صلدة تمتد مساحات شاسعة تحت التراب، فيها خطوط أفقية رفيعة أو عريضة، تتفاوت ألوانها بتدرج لطيف، تجعل الناظر إليها يقرّ بعبقرية خالقها.

تنبّه الأميركيون الذين يقيمون قبله في تلك البلاد من قارة أفريقيا العظيمة فتوالت عليه العروض منهم، ملايين الدولارات... ملايين خذها، واترك لنا المكان للاستثمار.

قالت زهية إنّ الله كافأه لأنه أراد خدمة صديقه، وقال هو إن الله كافأه إذ أنعم عليه بالزواج منها، وقالت هي إنّ عليها أنْ تكافئ عمها الذي اشترى لها ولزوجها بطاقتيْ السفر حين نويا الانتقال إلى تلك البلاد المنجم، ولم يكن بحوزتهما يومئذ أي قرش يمكّنهما من فعل ذلك الأمر لولاه.

عمها كان يحبها، وهي كانت تحبه كأبيها وربما أكثر، يدللها منذ صغرها ويعوض بوجودها عن انعدام ذريته، تشعر دائماً بمكانة لها في قلبه مميزة، كيمياء حقيقية بينهما لم تفهمها، فاكتفت بتقبلها وفيما بعد بالاستمتاع بها... لكنّ من أعطى أخذ، منحها أموالاً طائلة، وأخذ في المقابل زوجها، جرثومة أفريقية فتكت به ولم تمهله أكثر من ثلاثة أيام، تقيأ بعدها دماً كثيراً، وغادر الدنيا.

بعد شهر من ترمّلها وحزنها ودموعها ولوعتها، قامت الأرملة الشابة بتصفية أعمال زوجها واستثماراته التي قضى مدة إقامته هناك عاملاً على تفعيلها، باعت كل شيء وعادت.

الزيارة الثانية إلى أرض الوطن كانت لمنزل عمها بعد زيارتها منزل أبيها، خمس سنوات لم تره، مشتاقة إلى أحضانه، وإلى تدفق الحنان بينهما، لكنه اختفى، منذ أكثر من خمسة أشهر، هكذا أخبرتها الزوجة، والابتسامة العذبة تعلو وجهها:

– قضاء وقدر حبيبتي، ومن نحن حتى نتحدى القدر؟!!

من يسأل عني يا ميشال؟ تقول من؟ سيدة؟ فلتصعدْ إلى هنا، ركبتاي لا تتحملان الصعود والنزول بعد. نعم سيدتي، عمن تسألين؟ نعم أنا جرجي شيحو، هو بعينه، تفضلي، عمَ تريدين السؤال؟ مسألة خاصة، خذي راحتك واسألي حبيبتي، تفضلي اجلسي هنا، أهلاً بك، أها دعيني أراك جيداً، سيدة جميلة أنت... الآن رأيتك بوضوح، اقتربي أكثر، هذا كافٍ تقولين، طيب كما تريدين خذي راحتك، تبحثين عمن؟ عن سلطان زعتر، ياه عن أي زمن تتحدثين يا امرأة؟

غير معقول هذا الأمر تقولين إنه عمك؟ عمك أخو أبيك، أها الآن تنبهت كم تشبهينه، وسيمة مثله لكن عينيك أجمل، فلك شفتان مكتنزتان كشفتيه، اقتربي أكثر حتى أراكِ، تقولين لا، طيب

كما تريدين، لا لا داعي للغضب لست أغازلك، أردت التأكد من الشبه بينكما حتى أحكي، تريدين البحث عن رأس خيط، تقولين وجدت اسمي ضمن قائمة اتصالاته الأخيرة المسجلة على هاتفه، منذ متى هذا الكلام؟ الرجل لم يتصل بي منذ زمن بعيد، منذ مئة عام ربما ها ها ها، على كلّ سأخبرك عنه. أنت ذهبت إلى حارتي القديمة وهناك دلّوك عليّ؟ يعطيهم العافية أولاد أصل وحياة الرب لم ينسونا بعد مرور كل هذه السنين.

مضت سنوات طويلة لم أطأ خلالها تراب حارتي القديمة، آخر مرة كنت فيها تأثرت كثيراً، تغيّر كلّ شيء نحو الأسوأ، باعوا البساتين عقارات، وامتلأ كل مكان بالبنايات، عُلب من الباطون هائلة الارتفاع، مشهدها يصدّع القلب، كان ثمة نبع وعين هناك. وراء النبع كان بيتنا، لا يغرّنك مظهري الحالي، ولون شعري المصبوغ كرمى لزبائن المقهى، الحمد لله لست أشكو من شيء بعد.

أنا ابن جورج شيحو كاهن كنيسة حارتنا، كانت تُعرف بحارة المسيحية، ثلاثة أرباعهم هجروها إبّان الحرب، نادتهم جنيات الهجرة داخلية أو خارجية، شجرة ميس ضخمة كانت تنتصب أمام باب كنيستنا الخشبي، عرفت من فترة أنهم قطعوا الشجرة، فهشلت العصافير منها، مخلوقات مسكينة العصافير، لا نحن المساكين،

طبعا؟ هكذا تعتقدين؟ أرادوا توسعة المرأب الكبير، أليس الأمر خسارة فادحة! أتقطعُ شجرة مثلها؟ شعرتُ بغصة عندما رأيتها، كانت لي ذكريات حلوة عند تلك الشجرة، يا لها من أيام!

بداية معرفتي بعمّك سلطان كانت عند تلك الشجرة. أتريدين أن أحكي لكِ كلّ شيء؟ ولكن أخشى أن يزعجك ما أقول، لن تزعلي مني! ما من زعل، طيب، طيب قد أرسلك الله إليّ يا ابنتي، بفضلك سأستعيد نفسي، وأتذكر الأيام الخوالي، ولكن كيف أحكي، ومن أين أبدأ؟؟

كان المرحوم والدي رجلاً، رجلاً حقيقياً من رجالات ذاك الزمان، كان يقول لي منذ ذلك الوقت «لن تصبح رجلاً يا بني» وقد حدث فعلاً ما تنبأ به. من كان يتوقع أنّ ابن محترم الحارة سيفتح مقهى ويستحيل بائعاً؟ إنها الحياة يا بنتي.

كنت وقتئذ شاباً في مقتبل العمر، فررت من الخدمة العسكرية، ورحت أعمل سائقاً بالأجرة متكئاً على نفوذ أبي، تعرفين كانت لرجال الدين سمعة وهيبة. كنت فاراً لكني بقيت أقيم في الحارة، وكان التجنيد لا يزال سارياً، يبنون جيش الوطن من مختلف طوائفه، فررتُ من الجيش مع عمك سلطان زعتر، فأقام معي في الحارة فترة، في القبو الذي كان ملحقاً بالكنيسة، والذي حوّلته بعد ذلك إلى مقهى قبل أن أشتري هذا المكان الذي نجلس على أرضه

الآن، القبو قرب الساحة التي تتوسطها الشجرة الجميلة، شجرة الميس المحاذية لبيت العميد.

أسرة العميد من طائفة أبي نفسها، كل مساء سبت كان الرجل وأسرته يأتون إلى المنزل، ونهار الأحد يشاركون أهل الحيّ في القداس، منزلهم الرئيسي في العاصمة، منزل فخم كما يصوره العميد لأهل حيّنا دائماً.

جاؤوا معهم من مكان ما بفتاة تبنّوها كما قالوا ليُشعروا الناس بفضهلم، ذكروا التبني بدل أن يذكروا أنها خادمة، كانت زوجة العميد في الستين من عمرها حين ظهرت الفتاة معهم، زوجها كان في الخامسة والستين له وجه صارم كسيف، وجسده لوح خشبي مستقيم رغم السنوات التي عَدَتْ، لهما ابن وحيد رُزقا به بعد طول علاج، طويل نحيل عصبي، أصفر الوجه ممصوصٌ، يتبدى كأنه يقضي أيامه صائماً، وكان في الثانية والعشرين من عمره.

الفتاة كانت تُدعى وردة، نعم هي أخبرتنا بذلك، بدّلت زوجة العميد اسمها بحجة أنه اسم فلاحيّ، جعلته حَسيبة. في ذلك الوقت اعتادوا أن يفعلوا هذا الأمر، يسمحون لأنفسهم بتغيير أسماء البنات اللواتي يستقدموهن للخدمة، وهؤلاء ولحكمة من عند رب العالمين، جميعهن كنّ جميلات حتى لا يظنّ الناس أنهنّ بنات الأسرة بالفعل، يطلقون عليهن أسماء مستعارة حرصاً على

سمعة العائلة، هل فهمتِ؟ ليس هذا وحسب بل كانت السيدة تقصّ شعر الفتاة من جذوره بحجّة القمل، بينما السبب الحقيقي هو رغبة السيدة في أن تبدو الفتاة قبيحة فلا يتحرّش بها زوجها! اليوم الفتيات هنَّ من يتحرّش بالزوج. المهم فلأختصر يا سيدتي عندما تقاعد العميد، واستقر مع أسرته في الحارة راح اسم حسيبة يتردد على ألسنة الشباب من أبنائها. صحيح أنها كانت بالكاد تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ولكن ما شاء الله، يخزي العين، كانت لها مؤخرة عريضة، ولا أجمل، وثديان نافران يثيران حتى الحمار المربوط بالرسن، لا تزعلي من صراحتي، كنّا نسمع من نساء الحارة، أنّ زوجة العميد تدّعي أن رأس حسيبة يعجّ بالقمل، فتدهنه بنوع خاصّ من السّم لقتل القمل، لذلك قصت شعر الفتاة على «الزيرو»، غير أن الجميع كان يدرك واقع الحال.

صحيح أن العميد كبير في السنّ، لكنه لم يكن يوفّر حتى أنثى الذباب الطائرة في الهواء، نفسه قطّيعة، وهو على كل حال كان متأثراً بالدماء المشرقية الحارّة الجارية في عروقه، إبن أصل كما يمتدح نفسه، على عكس أبي يرحمه الربّ والذي لم يتبجّح يوماً برجولته من هذه الناحية، فقد كان معنياً بأمور أخرى. المهم أن زوجة العميد ضبطته غير مرّة وهو يتحرّش بالفتاة: يحاصرها هنا وهناك في زوايا البيت، فقصّت شعرها حتى يختفي جماله وجمالها، هل فهمتِ؟

لم يكن لنا زعيم يحمينا، لذلك كانت حارتنا حارة فقراء، والبيت الوحيد الذي سكنت فيه فتاة متبناة تقريباً هو بيت العميد، ولأن الفتيان لا يتجرؤون على التحرش ببنات الحارة، فقد راحوا يلاحقون حسيبة كالقطط الهائجة في شهر شباط.

ذات يوم ونحن، أنا وعمّك، نعبُر تلك الساحة، رأينا حسيبة فوق الشجرة، أنت كبير يا ربّ قد أرسلتها إلينا بالسّلة، نحمدك كثيراً، خلعنا أحذيتنا فوراً وتسلّقنا باتجاهها، يا لها من أيام! عندما رأتنا أطلقت الفتاة صرخة حادة مولولة:

- أسكتي يا بنت، العمى بقلبك. قال عمّك.

قلت لها:

- إذا سمع جماعتك صوتك طردوك من بيتهم، أنت الخاسرة.

توسّلت إلينا:

- دخيلكن، أرجوكما اتركاني.

كانت تنتفضُ بين أيدينا كطائر الدّوري، حتى اليوم أحسّ بدقات قلبها فوق راحتي، نكأتِ لي جراح قلبي أيتها الصبية.

لسوء الحظ لم يكن على رأسها شعر لأتمكن من شدّها نحوي، كانت أسوأ من صبي، عمك سبقني وجرّها نحو صدره ممسداً على ظهرها بقوة.

- أتركاني وإلّا...

- وإلّا ماذا؟

قلنا لها بصوتٍ واحد.

مدّ عمّك سلطان يده ليمسك تنورتها، بسرعة مزّقت وجهَه بأظفارها، وبصقت على وجهي، ثم قفزت إلى الأرض!

كانت المسافة مرتفعة جداً، الشجرة أعلى من سقف كنيستنا، راح قلبي يدق بعنف من شدّة خوفي عليها، عمك كان أثبت مني، غمزني بعينه اليُسرى، وانزلقنا على جذع الشجرة، وهبطنا على الأرض، طار رفّ العصافير المستقرّ في الأعالي مصدراً صفيراً موحداً خوفاً من حركتنا واضطرابنا. نهضت حسيبة فوراً من حيث وقعتْ، مددتُ لها قبقابها الذي كان عند جذع الشجرة.

لبسته وهمّتْ بالهروب منّا:

- أخاف أن تكوني قد تأذيتِ يا فتاة.

قال لها عمّك مادّاً يده باتجاهها.

ردُّها كان سريعاً وحاسماً، ضربت رأسه بالقبقاب أولاً ثم ضربتني على عيني، هه انظري كادت تُعميني، لكني بحماية الربّ وبرعايته بت أحولَ فقط، وصار جبين عمّك منقوراً كفنجان قهوة، أو ربما أقل، المهم تركت له الصبية هناك حفرةً عميقة، كلّ من ينظرْه يرها، هل لاحظتها يوماً؟ نعم تقولين رأيتها، وسألته عنها مرة قال حادثة بسيطة، طبعاً ها ها ها ماذا سيقول لك غير ذلك أكيد؟

رغم مرور كل تلك السنوات لايزال أثر قبقاب حسيبة على عيني وفوق جبين عمك، حلال عليها. تستحق «ابنة كار» من أول حياتها.

بعد ضربة القبقاب تلك تعاهدنا أنا وعمّك على الثأر منها، لكن من المستحيل الإمساك بها، كان الأصحاب يسألونني عن حَول عيني المفاجئ، فألفّق لهم مشاجرة شاركت فيها بإحدى التظاهرات لأختصر.

تتعرض حسيبة المسكينة كلّ يوم للضرب حتى أصبح الجيران يُحرمون النوم بسبب صراخها وعويلها، كان العميد وزوجته وابنه يضربونها كلّ بدوره، ويا له من ضرب! كانت الدماء تنفر من فمها وأنفها، تسألينني لماذا؟ لأنّ الزوجة تغار منها على زوجها، والعميد يغار عليها من ابنه، والخنزير الصغير الممطوط الذي هو ابن العميد يغار عليها من أبيه! وكلما انفرد بها أحدهم ينهال عليها ضرباً وركلاً، حتى أنّ زوجة العميد دفعتها غير مرة من فوق الدرج.

ذات يوم كنّا نمرّ أنا وعمك خلف بيتهم، سمعنا طرقات خفيفة على زجاج النافذة، التفتنا باتجاهها، فلم نرَ شيئاً، وبعد قليل أطلت حسيبة التي ألحقت عطباً مستديماً بوجهينا بواسطة قبقابها. راحت ترصف مزهريات أمام النافذة، فيها شتلات الغاردينيا والقرنفل والعطر البلدي والحبق، فجأة وقعت أمامنا زهرة غاردينيا، اقتربنا حتى حاذينا النافذة، سمعتها تهمسُ في أذن عملكِ سلطان:

- هل طابَ جبينكَ؟

- وأنا؟

سألت مستنكراً بعد سماعي صوتها.

قال لها عمك:

- كدتِ تقتلينا يا قاسية القلب.

- ليت يدي كُسرت قبل أن تمتدّ عليكما.

خشينا أن يرانا أحد، تبادلنا نظراتٍ ذات مغزى وتابعنا إظهار استيائنا وغضبنا:

- ماذا تريدين منّا الآن يا حسيبة؟

- عندي ما أقوله لكما، سنقفُ تحت الشجرة.

دُرنا لفةً حول الكنيسة، ثمّ توجهنا نحو الشجرة حيث كانت بانتظارنا تؤرجح ساقيها العاجيتين بلا مبالاة.

قال لها عمّكِ:

- ماذا تريدين يا بنت؟

باغتتنا المسكينة ببكائها! تريد أن تحكي فتسبقها الدموع، أثارنا بكاؤها، كدتُ أشاركها، عمّك نَهاني، عضَّ على شفته السفلى وأشرّ بسبّابته. قالت لنا من بين دموعها:

- أتريدانني؟ إن كنتما ترغبان فيّ خذاني وافعلا بي ما تشاءان،

سيقتلونني، أنظرا: كل جسمي متورم من الضرب، مُتّ وانتهيت سوف تخرج جثتي من هذا البيت بالذات.

أرتنا ذراعيها، كانت بشرتها زرقاء من الكدمات وكذلك وجهها.

صحيح أنني وقتئذ كنت شاباً يافعاً، لكنني كنت لاأزال أعتمد كليّاً على أبي، أعمل يوماً وأستريح عشرة، عمك كان ضائعاً، لم يجد عملاً حقيقياً بعد هروبه من الخدمة العسكرية، والده الذي أصيب بالخرف جراء هجران زوجته له طرده، وهو بالكاد كان يحصل على بضع ليرات من فترة إلى أخرى، بالإضافة إلى أنّ نيتنا بالأصل والحق يقال، كانت نيل بعض المتعة منها، كنّا نتناقش بذلك ونقول:

- لِمَ تعطي العميد، وتبخل علينا؟ ليس الأمر منطقياً!!.

هذه كانت نيتنا، ورغم أنّ حال البنت قد أثّرت بي تأثيراً عميقاً، إلّا أن واقع الأمر أنني كنت ابن كاهن البلدة، ولن يرضى بزواجي منها، وهي من طائفة غير طائفتي، عمك كان يفكر بطريقة أخرى.

قال لها:

- عودي الآن إلى البيت، وسأفكر في مخرج ما.

- سوف أقتل نفسي، لن أتحمل أكثر من ذلك، أليس هذا أفضل من أن يقتلوني هم؟ أرجوكما فليتزوجني أحدكما، سأكون لكما ما تريدان، أنقذاني وافعلا بي ما تشاءان.

امتلأت عيناي بالدموع، من المعيب أن أبكي أمام امرأة، عمك كان أكثر صلابة مني، وجد ذريعة للتهرب:

– طيب، ولكن ثمة إشاعات سيئة عنك في الحارة يقولون إن العميد ينام معك، هل هذا صحيح؟

ليس في هذا العالم القذر امرأة أشجع من حسيبة،أقسم بالله على ذلك، أتعرفين ما كان جوابها؟

– ليعاقبه الله، يأخذني إلى سريره بالإكراه، ولمَ أخفي عن البشر ما يعرفه الله؟ هو أولى بخوفي منهم.

هل ترين الإحساس بالشرف عند فتاة في عمرها؟ تفو على ذاك العميد العجوز... مع فتاةٍ بعمر حفيدته؟!

قلت لها:

– يقولون في الحارة إنّ ابن العميد يفعل ذلك أيضاً؟

صحيح؟

تنهمرُ الدموع من عينيها كأمطار كانون، فتردّ باكية:

– لن أكذب عليكما، وخصوصاً عليك أنت، نظرت إلى عمك، نعم صحيح، إنّ زوجة العميد ترغمني على النوم في حضن ابنها حتى تبعد زوجها عني.

تستمرّ المسكينة في نحيبها.

خشيت أن أبكي، بل إني بكيت فعلاً، أدرتُ ظهري لأخفي عنها دموعي، قال لها عمّك بثقة:

- هيا عودي إلى البيت يا حسيبة، وسنراكِ فيما بعد.

آه من عقلي، لو قلت لك إن عقلي عقل حمار لظلمت الحمار وأهنته، تزوجت فتاة عذراء، فماذا جنيت؟ لقد ركبت لي قروناً معرّشة، ونمت ستة أشهر في السجن بسببها، وبسبب خيانتها لي واعتدائي على عشيقها. ضربته حتى كاد يموت، ترفعت عن تلك الصبية التي أحببتها، وتغاضيت عن إنقاذها، فما كانت النتيجة؟.

أمّا عمكِ فأنت أدرى مني بعدد النساء اللواتي تزوجهنّ، كان دائماً يتباهى:

- نحن المسلمين أهل نكاح، ليس منّا من خالفنا...

لنختصر إذاً، صرنا نلتقي أنا وعمك وحسيبة تحت تلك الشجرة كلما وجدنا فرصة سانحة، كانت الفتاة كثيرة الدموع، تتكلم وتبكي، وتبكي أكثر ممّا تتكلم.

ذات يوم منعتها الدموع الغزيرة عن الكلام لكنها استطاعت أن تقول:

- لن أستطيع الكلام، احكيا أنتما...

ثم ضغطت بيدها على صدرها وهي تقول:

- يوجد الكثير هنا ولكن...

ثم رفعت يدها إلى شفتيها وتابعت:

- ولكن هنا لا يوجد شيء...

ما زلت أذكر، ولكن أين لنا بالضمير في تلك الأيام؟

قال لها عمك سلطان:

- فهمت يا صغيرتي.

وأطبق بفمه على شفتيها. جَفّ ريقي، لكني لم أفهْ بكلمة.

روتْ لنا حسيبة قصة حياتها وهي تبكي، ولدت أثناء خدمة أبيها العكّاريّ في الجيش، كان يعرف العميد ويُلحَق أحياناً بخدمته، أمها كانت الزوجة الثانية جميلة كبدر مكتمل، لكنها مريضة وضعيفة لا تستطيع القيام بأي عمل، عند عودة أبيها من الجيش تزوج للمرة الثالثة نكاية بأمها التي أنجبت له ابنة، يعني هي، أتى إلى المنزل بامرأة آفة، شابة قوية مفلطحة الوجه والمؤخرة، تقوم بكل الأعمال، وتجيد الصراخ في الليل، بدأت تضغط على زوجها كي يزوجوا حسيبة التي كان اسمها وردة، ماتت أمها قهراً، فازداد ضغط المرأة الفتية، وكان لها خال يُدعى حَسن اعترض على تزويجها لأنه كان يحبها كثيراً، قال لصهره:

- كيف تريد تزويج فتاة لا تزال تتبول في فراشها؟!

كان العريس جاهزاً، رجلٌ بعمر أبيها مستعد لانتظارها حتى تكبر.

صحيح أن الخال استطاع منعهم من تزويجها، لكن ضغوط زوجة الأب الجديدة أثمرت في النهاية، أخذها أبوها وأعطاها لأسرة العميد الثرية، وكان الأخير قد أخبره مرة أنّ زوجته كبرت، وأصبحت بحاجة إلى خادمة فتية، وردة صغيرة آنذاك لكنها تفهم كل شيء، سمعت أن خلافاً دبَّ بين أبيها وخالها. وبعد أسبوع، وكانت الحرب لاتزال مشتعلة في العاصمة تتناهى إليهم دائماً أخبارها، مات أبوها برصاص أحد القناصة، وهو يشتري بعض الحاجات يعود بها إلى زوجته المتنمرة بعد انقضاء فترة خدمته.

لم تستطع وردة التي صار اسمها حسيبة أن تبكيه عند سماعها الخبر، وقفت أمام النافذة طويلاً، حدّقت إلى الليل في الخارج، أرادت أن تبكي، منعتها حسيبة.

بعد حوالى شهرين من لقاءاتنا المتكررة مات العميد العجوز، كانت حسيبة في حضنه عندما مات، ارتعش بعنفٍ ثم تخشّب تماماً، اتسعت عيناه الصغيرتان، وكبرتا فجأة، كل ما عداهما صغُر وتداعى.

فرّت المسكينة من الفراش، وهي تطلق صرخات مجنونة، استيقظ أهل البيت، وصرخوا بها:

– لم تكتفي بقتل الرجل يا عاهرة، تريدين فضحنا أمام الناس أيضاً؟!

طردوها فوراً من البيت في تلك الساعة المتأخرة من الليل، والوقت شتاء وبرد وثلج، وهي عارية تماماً كما ولدتها أمها، خرج عمك على صراخها، رفض هذه المرة أن أرافقه، أجابني حين قلت:

– أخرج معك؟

– ابقَ هنا، الآن دوري. ثمة وقت مناسب لكل شيء.

لم أفهم تماماً، لكني خفت من الفضيحة في الحارة. وضعَ عليها سترته المهلهلة، ومضى بها في الليل، بقيت أرقبها حتى اختفى شبحهما في آخر الحي،وانهزمَ الضوء الذي خلفته تلك الصبية وراءها.

بعد بضعة أشهر سمعت أنّ عمك تزوجها، وأنه يسكن وإياها بيتاً فقيراً في حي فقير من أحياء العاصمة.

انتقل والدي إلى ملكوت الربّ بعد مدة وجيزة من رحيل عمك، بقيت وحيداً بلا سند، طلبتْ مني زوجة العميد قيادة سيارته بعد موته وتلبية طلباتها، على أن تمنحني راتباً شهرياً متواضعاً، رفضت إكراماً لذكرى حسيبة، ولكرامتها المذبوحة.

ذات ليلة أوصلتُ في وقت متأخر، زبوناً من منطقة إلى أخرى في العاصمة، خلال طريق العودة، وقرب إحدى الحانات المنتشرة في المنطقة كان سائقٌ يحاول إصلاح عطلٍ في سيارته، وقفتُ بقربه، وقلتُ له:

- أتحتاجُ إلى مساعدة يا صاحبي؟

- هذه اللعينة لا تريد أن تتحرّك، خذ جماعتي وأوصلهم بدلاً مني.

نزل من السيارة رجلٌ وامرأة، صعدا إلى سيارتي العتيقة، شوف النصيب يتكلمان الفرنسية، أجانب؟ ربك كريم يا جرجي، خاطبت نفسي.

سألت السائق:

- أين يريدان الذهاب؟

- إلى جونيه.

نظرت إلى المرأة، يا لها من امرأة! طفلة شقراء لعبة رشيقة فاتنة، أما الرّجل فأسمر عجوز أصلع، لهُ عينا صقر لكن أنفه مرتخٍ مفلطح وشفته السفلى متدلية بسخاء غير مُشتَهى.

انطلقت السيارة، ورحت أراقبهما من خلال المرآة، كانا يتحدثان باستمرار. من الواضح أنهما يتشاجران، حتى بالفرنسية يمكن الإدراك أنها مشاجرة، يتناقشان بحدة، الأصح أن المرأة هي التي يعلو صوتها، وكلما خفض الرجل صوته ازدادت المرأة تنمّراً، لَه لهْ له، لولا الخجل فإنها ستضربه، من الواضح أنهما ثملان للغاية.

من بين حديثهما الفرنسي المتدفق فاجأتني شتيمةٌ لبنانية صِرفةٌ، مُجوَّدة باتقان:

- أنت حمار ابن حمار.

أدركت حينئذ أن المرأة بضاعة وطنية، فليس من المعقول أن ينحط الأجانب مثلنا، فهم مهذبون للغاية!

تابعت المرأة مُلاسنتها بالفرنسية، لكنها بين الحين والآخر تمرّر شتيمة جديدة، وعندما تغضب جيداً تقذف الرجل بشتيمة لبنانية من العيار الثقيل.

- عكرو.... ابن كلب...

وشتائم أخرى تشبه هذه.

احمرّ وجهي لأني شعرت بأن في إهانتها لهذا الرجل إهانةً لكل جنس الرجال الذي أنتمي إليه، وإهانة لمواطنتي، الرجل في ضيافتنا رغم كل شيء، هذا أمر لا يجوز!.

اعتقدت أنّ الرجل لا يعرف العربية.

- يا ابن الشرا....

لم أتحمّل أكثر من ذلك، خاطبتها:

- عفواً سيدتي، لا أريد التدخل في خصوصياتكما، لكني أتساءل أليس لهذه الشتائم ما يقابلها بالفرنسية حتى تقوليها بلهجتنا اللبنانية؟!

- لا طعم للشتائم بالفرنسية، لا أرتاح إلا عندما أشتم بلغتي الأم.

- دعيه وشأنه لو سمحت، أنت تمسخين رجولته لأنه لا يعرف العربية.

- وما شأنك أنت، اهتمّ بعملك بصمت.

أغاظني كلامها:

- لا تغلطي معي يا سيدتي، إيّاك...

- وماذا إن أخطأت يا بن الشرا...

وراحت تغدق عليّ أنواعاً من السِّباب يحمرّ له الوجه والأذنان. يِه لقد تورطت.

- عيب عليك، رأيت ملابسكما فظننتكما من المجتمع الراقي، حتى أولاد الشوارع لا يتمادون في الكلام مثلك.

- ماذا تظنّ؟ أنّ المجتمع الراقي لا يتصرف على هذه الشاكلة؟

أعجبني كلامها هذا، لولا ذلك لطردتهما من السيارة.

في هذه الأثناء قال لها الرجل شيئاً، ثمّ التفتت إليّ:

- يطلب مني أن أتوقف عن محاورتك، لقد أثرتَ غيرته، فقلت له إنك جشع تريد مبلغاً كبيراً من المال.

عادا إلى الصراخ، وكانت تزين كلامها الفرنسي بأشنع شتائمنا اللبنانية، تصدير مجاني وحياتك، لم أعد أحتمل، ضغطت على المكابح، فأصدرت سيارتي العتيقة أزيزاً طويلاً، قلت لها:

- انزلا، هذه السيارة لن تتحرّك قبل نزولكما.

– لا تكن غبياً، سوف يدفع لك ألف ليرة.

الآن فهمت، هي بضاعة حقاً، يا لقلة الحياء!

لم يغرني المبلغ، ظل استيائي عارماً من شتائمها للرجل.

– اسمعيني جيداً، حتى لو دفعت لي مليون ليرة، فإنّ سيارتي لن تتحرك.

ثمّ التفتُّ إليها طالباً منها النزول، صرخت بي ما إن رأت وجهي.

– جرجي.

صعقتني، نظرت إليها بإمعان، هذا الوجه الناعم، هاتان العينان...

– ألم تعرفني ولَك؟

– لا.

مدت يدها، ولمست عيني اليسرى، وعلقت:

– هذا أثر قبقابي على عينك.

– حسيبة؟

– ما عاد اسمي حسيبة، أنا الآن أنغام.

نشّف دمي، إذبحوني يا ناس، ولن تروا نقطة دم تنساب مني، شعرتُ بغصّة في حنجرتي، أنا أوشك على البكاء.

– هيا تحرك، أمرتني.

بصمتٍ ضغطت على البنزين، بدا أنّ الرجل استغرب حديثنا، راح يسألها وهي تجيبه بلا انفعال، لكنّ صوتها بدا غريباً. واضح أنها تبكي الآن بكاءً مختنقاً، صار الرجل يتحدث ليسليها، وأنا أرقبها عبر المرآة. عندما أحسّ أنها هدأت مدّ يده يريدُ وضعها فوق كتفها، دفعته عنها. سألتني عن أخبار الحارة حكيتُ لها.

- زوجة العميد وقعت وكسرت عمودها الفقري وهي الآن مشلولة، وابنها الخنزير الممطوط تزوج أول مرة ثم طلق امرأته، هربت لكثرة ما كان يضربها، والثانية التي تزوجها قفزت عن الشرفة، كسرت ساقيها ثم عادت إلى منزل أهلها، لم تطق عشرته، يقضي الوقت يسبّ أمه التي حرمته من حسيبة، يعني منك.

ابتسمت بشماتة وقالت همساً: تفو. وقد علا الاشمئزاز وجهها.

- ما أخبار زوجك سلطان، من مدة لم أره.

عادت تبكي بقوة هذه المرة.

- لا تبكي أرجوك، تعرفين ضعفي أمام بكائك.

- أتركني أبكي.

- حاضر.

تزوجني ذاك النذل مدة عشرة أيام أمام مأذون زائف كما عرفت

لاحقاً، إذ أصبح واحداً من زبائننا. أنهك جسدي بمضاجعاته التي لا تنتهي ثم أعطاني خمسين ليرة، وقال لي:

- دبري نفسك، هي كلّ ما أملك، الله يخرب بيتك، وتركني رغم بكائي وتوسلاتي.

تسكعت طويلاً قبل أن أنتهي إلى ما انتهيت إليه... سلطان... عساني التقيه يوماً، وسأريك ماذا أفعل به...

- اسكتي سوف يرتاب الرجل.

- طظّ، لا يهمّ.

كان الرجل يسألها بين الحين والآخر فتسكته، أدركت لمَ يتحمل الرجل إهاناتها فهي مجرد رفيقة سرير لليلة واحدة بالنسبة إليه، ولذلك لم أسألها عنه، لكنها قالت هو عربي لكنه لا يتقن العربية، ربته مربية فرنسية أصلها بريطاني تسكن من مدة في أميركا، اكتفيت بأن رفعت حاجبيّ باستغراب ولم أعلّق، ضيّعتني كما كانت تفعل كلما أراها.

- خسارة صادفتك في وقت غير ملائم، فنحن مسافران غداً.

- إلى أين؟

- إلى القاهرة.

- لماذا؟

- هناك سأتزوج هذا السافل.

- كيف تتكلمين هكذا عن رجل سيصبح زوجك؟

- لكنه فعلاً كذلك، لو لم يكن لما رضي بالزواج بي، هو ليس أفضل من صديقك سلطان، من طينة واحدة صدّقني، تفو عليه يا له من نذل حقير! أما عدتَ ترى سلطان؟ قلبي متحرق لرؤيته وضربه مجدداً.

لا أعتقد يا سيدة زهية أنك تستطيعين العثور على عمك هنا في مقهاي، أتمنى لو أراه مجدداً حتى أصفي حسابي معه، تركتُ له حسيبة فتركها للذئاب. قيل لي مرة إنه أتى يسأل عني ويريد مقابلتي، لم أكن هنا، من حظّه طبعاً، دائماً كان إنساناً محظوظاً، يلّلا دنيا... وَلك يا بولس وين كاس الوسكي، يه ذكرتيني يا زهية بالذي كان، أنا الآن أدير هذا المقهى، يلعبون فيه القمار أحياناً على الخفيف، أسكن هذه الغرفة فوق المقهى تحسباً، كلّنا مقامرون في هذه الحياة، نخبك أيتها الصبية الجميلة.

يه لم نهضتِ؟ إبقي قليلاً لنشرب معاً، لن أحاسبك على ذنب عمك، ولا على حبّك له رغم أنه إنسان لا يُحبّ، وَلَكْ يا بولس يا ابن الكلب وين الثلج؟ عجّل خلصني، رأسي عم يلفّ ويدور: كيف تعلمت تلك الحسيبة الفرنسية حتى تشتم بها، لايزال هذا السؤال عالقاً في ذهني منذ سمعتها، لم أجد أحداً حتى الآن يجيبني عنه! أتعرفين كيف تعلمتِ الفرنسية سيدتي؟ أيتها الزهية.

(٥)

المشاهد نفسها، الرائحة نفسها، المكان نفسه، وكذلك الأحاسيس.. لكنْ ثمة ما هو مفقود، أفهمكِ تماماً، كنتِ بحاجة إليه لاستكمال العودة.

لذلك تقصدينني الآن، تقولين إنّ الكابتن قيصر هو من دلك عليّ، ومن قال لكِ إنّ لديّ الإجابات كلّها؟ كذاب والله، لا أحد يمتلك الإجابات كلها. أبناء الوهم نحن، كلنا عميان نتوهّم الإجابات، وهي ضائعة منا، مجرّد ماءٍ في السّلال.

وذلك كان حال عمّك سلطان، عمّك تقولين أليس كذلك؟ توهم الرجل أنه قبض على الدنيا، والدنيا كانت تشد خناقها عليه.

وضعه كان زريّاً في الآونة الأخيرة من حياته إذاً، ممرضته أخبرتك بذلك؟ وأخبرتك بما هو أفظع كذلك؟ ماذا تقولين؟ زوجته الصبية كانت تصطحب عشيقها بين الآونة والأخرى إلى بيتها، بل تدخله إلى غرفة نومهما، وتسمح له بمداعبتها أمام زوجها وهو

طريح الفراش؟ يا ستّار يا رحيم! وبعدما تخرج تقول للممرضة إنه لك الآن اعتني به جيداً، لا أريد لزوجي الحبيب أن يموت سريعاً؟

فاسقة تلك المرأة، زعلتيني والله، أيّ ضمير سكن تلك الزوجة الملعونة حتى تفعل ما فعلت؟ أصلاً أي أحمق يتزوج امرأة صغيرة جميلة وهو في السبعين من عمره، عمّك، لا أحد سواه يستطيع فعل ذلك طبعاً، ولا رجل غيره امتلك جرأة ارتكاب الأفعال الغريبة في الحياة، لم تبكين الآن؟ أرجوك، أرجوك لا تفعلي سيدتي، قلبي لا يتحمل الأمر. نعم أعرف وحياتك، كان يحدثني طويلاً عنك في رحلاتنا ويستشيرني بشأن بعض الهدايا التي كان يحملها إليك، مسرورٌ أني تعرفت أخيراً إليك.

الرجل لم يحبّ في الدنيا سواكِ، نعم يحدث هذا، يحدث أن يكون للجبارين نقاط ضعفهم يتسربون منها.

سلطان زعتر كان رجلاً جبّاراً صدقيني، كان عليك أن تعرفيه حين عرفته، ثمانينيات القرن الماضي تشهد علينا، وعلى فعالنا، ما كنت تاجراً مثله، لا لا سيدتي، لم أمارس التجارة يوماً؟ ماذا كنت له إذاً؟ يعني أصف نفسي بأني كنت صديقاً مقرباً، شاعره، فيلسوفه الخاص ها ها ها، جامع أخبار ثقافية منوّعة يحبّ أن يفكّه بها نفسه من حين إلى آخر، مترجمه، أي شيء من هذا القبيل تعرفين أنّ عمك كان شبه أمّي، وليس ذاك عيباً حبيبتي، أصلاً بلدنا ليس

بلد علم ومتعلمين، نحن بلد التجار على أنواعهم، وعمّك «كان ربّها»، على كلّ يا ستي أنا متعلّم ومعي الشهادة، ليسانس في علم التاريخ والآثار، نلت إجازتي من جامعة الوطن، ودرست كلّ آثار الحضارات التي مرّت على أرضه: فينيقية، رومانية، عربية، عثمانية، أوروبية...والآن أحاول دراسة الزاحف الجديد منها إلينا، لكني لا أفلح، بات استيعابي قليلاً فيما يبدو هاهاها...

إضافة إلى أني أتقن إلى عربيتي الإنكليزية والفرنسية والإسبانية، رأسي قاموس حي، قيصر هذا الذي أرشدك إليّ هو من عرّفني إلى عمك، أو ذكرني له، قال لي:

- أخلصْ لهذا الرجل، وسيرفعك إلى السماء السابعة.

الكذّاب الأحمق عاشرتُ عمّك عشرينَ سنة، وما زلت أقيم على الأرض مغروزاً فيها كمسمار، لكن قامت صداقة متينة بيني وبين الرجل، بعد عام الألفين فقط لم أعد أراه، حدث سوءٌ كثير في البلاد، والأسوأ قادم على خيول متعجلة، كما ترين لايزال خيالي متوقداً رغم سنواتي السبعين، أيّة قسوة هذه أن نَهْرَمَ، وتبقى أرواحنا متوثبة؟

لم أعتقد يوماً أنّ سلطان سيهرم، ذلك العاشق حتى الفجع للحياة بكل ما فيها، يقبل عليها بشراهة ذئب جائع تخبرينني اليوم أن امرأة صغيرة السن قد تحكمت به في آخر حياته، وضيّعته من الحياة

بأسرها. يا للهول! المهم سيدتي أنك تريدين أخباره في مدريد، المدينة التي شهدت الحلقة الأخيرة من علاقتنا.

حاضر على رأسي، اسمعي يا ستّي:

كنّا نذهب إلى مدريد بين فترة وأخرى لأن عمّك كان مولعاً برياضة كرة القدم، يعشقها حتى الموت، بعيد الشر، وكان شديد الانجذاب إلى نادي ريال مدريد، يصفه:

– هو نادي النخبة، كلّ نجوم كرة القدم المميزين في العالم يلعبون معه، وأنا أعشق النخبة.

تعرفين يا زهية واسمحي لي بمناداتك باسمك، أننا كنا في مدريد خلال المباراة النهائية لكأس ملك إسبانيا، كان ذلك في الثمانينيات، أصرّ عمّك على حضورها، يومها حبيبتي وصل الفريق الثاني لريال مدريد المسمى ريال مدريد كاستيا إلى المباراة النهائية مقابلاً الفريق الأول، كانت حادثة فريدة في نوعها في عالم كرة القدم. وحينها أطلق الصحفي خوليو سيزار إيغلسياس، تعرفينه طبعاً المطرب المشهور صاحب أغنية Je n'ai pas change التي أعشقها، يومها كان هذا الرجل صحفياً مشهوراً ورياضياً ممتازاً، يعمل حارس مرمى من فريق الشباب في ريال مدريد ويتابع دراسة الحقوق في الوقت نفسه، لكنه تعرّض لحادث كاد يشله فتحوّل إلى الغناء بفضل ممرّضه، المهم أقول إنّ هذا الرجل ذا الصوت الذائب

دفئاً وعذوبة، أطلق اللقب المعروف بالإسبانية، La Quinta del Butre أي «خماسيّ الجوارح» وهو اللقب الذي كان يُطلق بالأساس على أشهر لاعب في المجموعة قبل أن يُعمّم على الجميع، وهو إيميلو بوترا غينيو معشوق عمك، إضافة إلى المجموعة الأربعة: مانويل سانشيز، رفائيل مارتين، ميتشيل وميغيل بارديزا.

وقد وصف الفريق يومئذ بأنه الأفضل في إسبانيا، وفي أوروبا خلال النصف الثاني من فترة الثمانينيات هذه، إذ حقق بطولتين متتاليتين كأس الاتحاد الأوروبي، وخمس بطولات في الدوري الإسباني أيضاً، وبطولة واحدة لكأس ملك إسبانيا، وثلاث كؤوس السوبر الإسبانية، وواحدة بطولة كأس الدوري... أوفّ بتُّ أتكلّم كثيراً، أتلاحظين؟ لا تؤاخذيني، سعيدٌ أنا بذاكرتي أمرّنها، لم تنزعجي؟ الحمد لله أنت إنسانة لطيفة إذ تصغين إلى عجوز ثرثارٍ مثلي.

اسمعي سأخبرك شيئاً، يوم المباراة النهائية التي أخبرتك عنها جُنّ عمّك من الفرح، فطلب الشمبانيا لكلّ الرجال والنساء الذين كانوا يحتلون مقاعد الصف الأول حيث جلسنا، كلهم دون استثناء، تخيلي ونحن نرتشف كؤوسنا المترعة وسط التصفيق الحاد، والضجيج، والحماسة الهائلة تقدمت إسبانية حسناء سمراء ليلية الشعر والعينين مكتنزة الشفتين، اقتربت من عمك بعد أن عرفت أنه

صاحب الضيافة، ورفعت نخبه ضاحكة بدلال، فما كان منه إلا أن لفّ ذراعه حول خصرها، وقبّلها قبلة عظيمة، ثمّ رفع رأسه بعدها بصلفٍ استعراضي فضجّ كلّ من رأى المشهد بالحماسة والتصفيق المجنون. وضعتُ يدي على فمي معتقداً أنّ المرأة ستصفع عمّك، لكنها ما إن أنهى قبلته حتى رقصت أمامه بابتهاج، وهي ترميه بنظرات نارية ساحرة مفعمة بالنشوة، كان رجلاً فاتناً للنساء رغم كلّ قسوته.

المهم يا زهية أنّه في تلك المباراة الشهيرة تعرّف سلطان إلى صديقه الإسباني ذي الجذور العربية مانويل.

مانويل هذا حكاية، قامت بينه وبين عمّك صداقة حقيقية انطلاقاً من حبهما المشترك لكرة القدم، رياضتهما المفضلة: يحكيان تفاصيل كلّ الحركات، وكل الضربات المسدّدة التي يقوم بها إيميلو، يتابعانه في أدق تفاصيله، حتى لو أطلق ريحاً في الملعب يتحدثان عن المسألة ها ها ها اعذريني على هذه النكتة الخارجة، لكنها وجدت فرصتها ليس إلّا، لطالما قال عمّك:

- كرة القدم رياضة الرجال حقاً، وكل ما عداها هراء.

كنت أهزّ رأسي حتى أبدو موافقاً، لكني في أعماقي لم أكن أفعل، فرياضات أخرى كانت تستهويني، ولاسيما السباحة البحرية، تجتذبني مياه البحر المالحة السخية إذ تحملني بين طياتها، على

كل تعودت ألا أناكفه حتى يبقى مزاجه رائقاً، فهو كالبنزين سريع الاشتعال، رجل نفطي بامتياز أخذ من العروبة نفطيته ليس إلا.

أقول بعد المباراة اصطحبنا الرجل إلى شقته في مدريد، تعرّفنا إلى زوجته ماريا: لطيفة وهادئة بقيت تنظر إلينا في ابتسام طوال فترة جلوسنا، ولم تشاركنا في مجلسنا سوى بنظراتها الرقيقة؛ على كل أنا استغربت الأمر برمته، فعمّك في العادة إنسان حذرٌ للغاية إلا أنه ارتاح لمانويل هذا بشكل مذهل، وسارت الأمور بينهما بتلقائية فريدة. إنكليزية الرجل كانت جيدة بالنسبة إلى كثير من الإسبان الذين التقيتهم، إلا أنه كان يتحدث العربية الفصحى بطلاقه مدهشة، وهذا سبب تقاربهما السريع.

أخبرتك أن جذور الرجل عربية؟ نعم فعلت، أول ما لفت نظري في شقة الرجل مجموعة الصور الهائلة المعلقة على جدران غرفة الاستقبال البسيطة، صور صور صور، بعضها حديث وبعضها التقط منذ فترات زمنية متباعدة كما تظهر الملابس والألوان، وبعضها قديم للغاية صور قديمة، قصّات شعر قديمة، أزياء قديمة مختلفة، ورقها أصفر أو ممزق أعيد إلصاقه وتسويته، ويبدو أنّ صاحبها قد بذل مجهوداً حقيقياً لتسويتها ووضعها ضمن إطارات خشبية أنيقة. وأوراق بعضها ممهور بأختام رسمية عليها كتابات

كثيرة، وصور بيوت صغيرة أنيقة، وأحياء مرصوفة جميلة وأسهم وإشارات...

رحنا نتفحص كل ما نرى ونتملّى بعض عبق التاريخ المنبعث من ملامح شخوصها، فيما مانويل يشرح لنا أن جدوده وأجداد جدوده من الأوائل هم من المدجّنين، أي أولئك المسلمون الذين سكنوا غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي إبّان حكم الخليفة محمد الثاني عشر آخر الخلفاء المسلمين هناك، وأنهم سُمّوا كذلك حين قام الخليفة بتسليم غرناطة لفرناندو الثالث ملك قشتالة والملكة إيزابيلا موقعاً معهما ما عُرف «بمرسوم الحمراء»، وأنّ جدّه ابن حمديس قد تمّ تعميده قسراً فيما بعد هو وسواه من المسلمين، فعُرفوا بالموسكيين، ثم تمّ بعد ذلك تحويلهم قسراً إلى المسيحية، أو سُمح لمن رفض ذلك بالهجرة وبمغادرة غرناطة، فانطلق جده الأكبر مذعوراً مع أسرته الصغيرة، وغاب في مناطق متعددة من الأراضي الإسبانية الشاسعة إلى أن وصل بعد مدّة إلى مدريد، واستقر فيها بعد أن حماه واحدٌ من سكانها، وسمّى نفسه فيها خوان باربارُوس.

راح بعد زمن يعمل في إحدى ورش النّجارة، وبقي على إسلامه سراً يمارس شعائره ويحفظ قرآنه، ويعلم ابنته وصبيه العربية. وهو إرث استمر في الأسرة تناقلته عبر الأجيال إلى أن

وصلت الشعلة إلى مانويل الذي اختار دراسة اللغة العربية، وكلّ ما يمت إليها بصلة في الجامعة الوطنية للعاصمة مدريد، وكانت الأسرة بكامل أفرادها مهما خفت صلة قرابتهم تجتمع يوماً في السنة احتفاء بذكرى وصول الجد الأكبر إلى مدريد واستقراره هناك، هذا تاريخنا ويجب أن يُحفظ، ثم التفت إلى عمك وعقب:

– أتعرف سيد سلطان أن اليهود حينها قد أُلزموا بالتحول كذلك، وأنهم عُرفوا في تلك الحقبة بـ Marronos وتعني بالإسبانية الخنازير؟ وأن الحقبة الوحيدة التي وجد فيها – جرّاء دراساته المعمقة – المسلمين واليهود مشتركين في تلقي الاضطهاد والنفي هي في غرناطة بالذات، وذلك خلال القرن الخامس عشر وبعض السادس عشر، فكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بالخفاء، إلى أن تحوّلت غرناطة كلها إلى المسيحية في نهاية القرن السادس عشر، وهكذا حوّلت مساجد المدينة إلى كنائس، أو دُمّرت تماماً، أو تمّ طمس الكثير من المعالم العمرانية العائدة إلى الحقبة الإسلامية فيها، كذلك تم في تلك الفترة تدمير الحي اليهودي الذي كان يُسمّى الغيتو.

تنبّه مانويل إلى إسرافه في روايته التاريخ، وقال اعذراني على ثرثرتي إذا أحببتما فيما بعد أصطحبكما بجولة على أهم مدن تلك الحقبة المشرقة.

دعانا بعد ذلك إلى تناول وجبة تاباس شهية قد علا الأرز فيها حبات القريدس الشهية، وذلك في غرفة طعامه ذات الطابع المشرقي الممتزج بمسحة أوروبية خفيفة.

بات مانويل يستقبلنا في كل مرة كنا نزور مدريد. يحتفي بنا كأعز صديقين، نشاهد المباراة ثم ننتقل إلى زيارة أماكن مختلفة متوزعة في مدينته الرائعة.

تصدقين يا زهية أني أشتاق إلى تلك الأيام، وأني أحياناً أتخيل نفسي في أنحاء كثيرة من تلك المدينة الرائعة، يجب أن تزوريها إكراماً لعمك لأنه أحبها كثيراً، وهو أصلاً عشق تلك البلاد بتأثير من أبيه، تسرّب إليه حبها لكثرة ما كان يحدثه عنها، كان أبوه، يعني جدك، أستاذاً للتاريخ، لا بد أنك تعرفين هذا الأمر أكثر مني، وكان كثير الحديث عن أمجاد العرب في تلك البقعة من العالم، لا يني يذكر له غرناطة وقرطبة وإشبيلية وسواها من تلك المدن التي يصفها بأنها جواهر القرون الوسطى، فيقضي وقته في التحسّر على الأمجاد التي تركها أبناء جلدته العرب هناك، ينفعل، يغضب، يلوم ويبحث في الوقائع وكأنه يراها.

يبدو حبيبتي أنه كان مهووساً بالتاريخ لدرجة أنه نسيَ واقعه، ونسي أنّ له زوجة جميلة. على فكرة عمك ورث جماله منها، هذا أمر مؤكد وحقيقي، عليه الاهتمام بها وإحاطتها بالمودة والحنان

فإذا بها تخونه مع أحد رجال البلدة الذين كان يستفزّهم جمالها. ثم فرّت بعد فترة معه تاركةً زوجها التاريخي، وأولادها الصبيان الثلاثة، وكان سلطان أكبرهم، ولأنه تحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية رعاية أخويه الصغيرين، ورعاية الوالد المطعون في كرامته، فقد تولّدت في ذاته نقمة هائلة على جنس النساء، فاعتبرهُنّ في الغالب إمّا عاهرات وإمّا عاهرات ها ها ها، تفهمين قصدي طبعاً، والتوصيف لعمك وليس لي صدقيني.

المهم سيدتي كان مانويل رجلاً حقيقياً استفاد من خلطته المركبة، من مزيجه المشرقي والآخر المغربي، فذاك الرجل كان غاية في اللطافة والدماثة وحسن الضيافة، وإتقان توظيف المعلومات، وقد كان بمثابة المرشد السياحي لنا في بلاد الزمن الماضي الجميل ها ها أعني إسبانيا حبيبتي.

أولى جولاتنا كانت في مدريد عاصمة المملكة الإسبانية، وهي أكبر مدنها في تعداد سكانها الذين يفوقون الثلاثة ملايين نسمة وحياتك، وهذا لا يشمل السياح الأجانب، يحيون معاً. تخيلي أنهم عرفوا الحرب الأهلية خلال العقد الرابع من القرن العشرين وذلك مدة ثلاث سنوات، لكنهم تجاوزوها وبنوا دولتهم الحديثة، ونحن حبيبتي تجاوزنا ربع القرن من حربنا اللعينة، ولانزال غارقين في وحولها.

تعرفين يا ست زهية أحياناً عندما كان عمك يعقد إحدى صفقاته المجزية لبيع الأسلحة، يعلق ضاحكاً:

- حسناً، ما داموا يريدون القضاء بعضهم على بعض فلأسهّل لهم مهمتهم ليس إلا، وحياتك أنا الوطني فيهم ولا أحد سواي، ما رأيكَ بكلامي بُرهان؟

كان الرجل صاحب فلسفة غريبة حيال مسألة التعاون هذه... يقول لي أحياناً:

- فكّر معي كم نحتاج من مئات وألوف مؤلفة من السنوات حتى نعيد تأهيل أجيال فاسدة برمتها، الأسهل إفناؤهم واستبدالهم بسواهم، نُسخ بشرية أكثر نظافة وجِدةً ونقاء وجدان.

والله أحياناً كان يقنعني! إذ ما الذي يدفع إلى الأعمال إلا معتقدات سكنت أصحابها، ويصعب بعد ذلك تخليصهم منها، ها أجيبيني؟

المهم حبيبتي بيّن لنا ذاك الرجل أنّ أصل تسمية Madrid عربي والله، مجرى الجليد، وبعدها تحوّل إلى مجريط إلى أن انتهت إلى تسميتها النهائية المعروفة.

وقد طاف بنا على القصر الذي تقيم فيه العائلة المالكة، وزرنا معه قصر مدريد الملكي الجميل الذي يحوي ألفي غرفة بالتمام والكمال، واصطحبنا إلى تياترو مدريد المسرح الملكي الفخم

الذي بني عام ١٨٥٠، حتى أنه أصرّ على اصطحابنا إلى المكتبة الوطنية رغم فتور عمّك حيال هذه الزيارة. بينما بدا أكثر حيوية وفتوة ونحن نتجول في أنحاء حديقة بوين ريتيرو الشهيرة التي أنشئت عام ١٦٣١، بعض الأشجار فيها هائل بارتفاعه وضخامته، مؤكد أنك رأيت مثلها في إفريقيا، توافقينني؟ وقد تخلفت أنا عن زيارة المتحف الوطني للتجارة، ومتحف الفن الحديث لسبب مخجل لا أجد نفسي مضطراً لذكره، واكتفيت بزيارة متحف برادو الذي يحوي أجمل المجموعات الفنية في العالم، فهناك رأيت لوحات رائعة للفنان آل غريكو، وأخرى لغُويا، والبعض لبيكاسو، وأفيلاسكينر صاحب لوحة وصيفات الشرف، اللوحة المفضلة في إسبانيا.

أحببت تلك المدينة صدقيني، وكان الرجل حريصاً كلما عدنا من زيارته على تزويدنا ببعض الهدايا الصغيرة، وطبعاً كان عمك يردها بأحسن منها.

وما كنت أستغربه هو استكانة سلطان في تلك البلاد، لم يُتم أياً من صفقاته فيها، هو الذي كان يحتسب كل دقيقة من عمره، ترك نفسه على سجيتها هناك، وكانت الفترة الوحيدة التي يستجمّ فيها حين يزورها.

لم تسأمي من ثرثرتي بعد أيتها الجميلة؟ لا، لم تسأمي؟ تريدين المزيد من هذه الحكاية؟

إذاً سأحدثك عن الجولة التي قمنا بها خلال زيارتنا الثالثة إلى إسبانيا، أعتقد أنها وحدها هي التي تعنيك.

كان عمّك قد أخطرَ مانويل بذهابنا، فوضع الرجل خطته، وبعد مشاهداتنا لإحدى المباريات المحلية لفريقه المفضل انطلقنا في رحلتنا الموعودة.

كان اليوم الأول في برشلونة، مدينة ساحلية جميلة تذكّر السائح بمدينة مارماريس التركية لناحية موقعها، لكنها أكبر وأعرق، المباني والطرقات متقاطعة فيها بطريقة هندسية جميلة، والتاريخ العربي غائب عنها، لا أثر لهم هناك، ربما لذلك هي جميلة ها ها ها لا تؤاخذيني أمازحك فقط، المهم أننا في طريقنا بين مدريد وبرشلونة زرنا كنيسة بيلار الرائعة، هي في ناحية تُدعى زراغوسا، تحفة فنية حقيقية.

لا أدري ماذا جرى هناك؟ ثمة أمرٌ لم أفهمه تماماً بقي مستغلقاً على فهمي! فقد تنقلتُ وعمَّك ومانويل يحدثنا عن التماثيل الهائلة الكثيرة، وعن الزخرفات القوطية الجميلة، والآلات الموسيقية الضخمة التي يعزف عليها الكورال.

توقف عمك أمام أحد التماثيل، واحد لملاك صغير يحمل

سهماً موجهاً إلى الأعلى منحرفاً نحو اليمين، وقد فتح عينيه بطريقة مخيفة إلى حدّ ما، متسعتين وحادتين، لا تنسجمان مع ملائكيته ولا مع جسده المكتنز الصغير. كان ضمن مجموعة من التماثيل المتشابهة ذات اللون البني الحاد الشديد الالتماع.

أكملنا أنا ومانويل جولتنا، ونحن نتحدث بصوتٍ خافت كي لا نزعج المؤمنين الذين لا يتوقفون عن الدخول والخروج، والصلاة وخلع الهبات السنية على قدّيستهم بيلار.

تنبهتُ إلى أن عمك بقي مسمّراً أمام ذاك التمثال، وقد علت وجهه جملة من الانفعالات الغريبة بدت جلية عبر الضوء الشاحب الذي يغلف المكان مشوباً برائحة البخور الزكية. ناديته بصوت خافت، لم يجب، بدا مأخوذاً تماماً، اقتربت منه، وأمسكت بذراعه، فأجفل بشدة، نظر إليّ نظرات غريبة للغاية، وحين سألته مستفهماً عن حقيقة ما رأى، أجابني بذهول:

- لا شيء، مجرّد صوت يناديني... هل تسمعه مثلي؟

أرهفت جيّداً، كان الصّمتُ هائلاً يقبضُ على حنايا المكان.

مرّت أكثر من ثلاثين سنة على نظرة عمك تلك، ولاأزال أذكر ذهولها وغرابتها. بعد سنة من تلك الرحلة انقطع عمك نهائياً عن زيارة إسبانيا، أنهى علاقته بمانويل، ما عاد يهاتفني ولا يهاتف قيصر، وأقسمُ لك وأنا بكامل قواي العقلية الآن إن الأزمة التي

أصابته بعد ذلك، و التي صوّرتها الصحافة على أنها صدمة عصبية قاسية جرّاء انفصاله عن زوجته الثالثة، قد بدأت في تلك اللحظة بالذات التي تسمّر فيها أمام تمثال كنيسة زراغوسا. أنا على ثقة تامة سيدتي بما أقول.

المهم تابعنا رحلتنا في اليوم التالي قاصدين قرطبة، مررنا ببلدة لامانشا حيث بطل سرفنتس دون كيخوته، رأينا طواحين الهواء ترتفع على الجبال كأذرع مفتوحة عظيمة، سألني عمك بصوت خفيض وأنا أجلس على المقعد إلى جواره، وكان مانويل قد حدثنا عن بطله القومي ذاك، وعن فتنته للعالم بروايته الساخرة، وسلطان يصغي بانتباه شديد، سألني وقد ذهب مانويل يقضي حاجته:

- أتراني أشبهُ دون كيخوته في جريي اللاهث نحو الحياة؟ قل بصراحة برهان هل أشبهه؟

أذكر أني نظرت إليه طويلاً، وقلت له بجرأة تقبلها لأوّل مرة:

- مع فرق بسيط صديقي وهو أن ذاك الرجل كان يصنع الحياة وهو يسعى للمجد، وأنت تصنع الموت في سعيك اللاهث إلى زائف المجد والحياة.

لم يُجبني يومئذ، ولم يغضب، كانت لحظة صفاءٍ لا مثيل لها.

تركتُ عينيّ تسرحان بلا ملل وسط سهول القمح وكروم العنب والزيتون والصبار، ترتفع قبالتها تلال الطواحين برحابة

ناعمة، روحي تمددت على تلك الأرض المنبسطة السخية،خيالي راحَ يعيدني فتىً يتواثب في تلك النواحي، أحمل سيفاً خشبياً أهوي به على جذوع القمح الطرية، أرسم بينها دروباً طويلة بلا انتهاء، دروباً لا تشابهُ تلك التي سلكتها مع عمك سلطان. باختصار سيدتي في قرطبة عبق تاريخ تعرّض لاغتصاب قاسٍ بدعوى الحفاظ عليه.

ففوق الآثار القديمة وعلى الأعمدة المقوّسة الضخمة تجتمع الآيات القرآنية مع التماثيل الكثيرة الهائلة المستحدثة، طوال الوقت، وأنا أتجوّل في مبانيها الأثرية الكثيرة تسرب إلى داخلي شعور برغبةٍ هائلة في طمس الآخر وفي إبراز التفوق عليه، معركة البشر، قابيل وهابيل دائماً وأبداً، وقد عقّب عمك على شروحات مانويل لناحية تلك التحوّلات:

– دائماً ثمة من يصنع الحضارات من البشر، وثمة في المقابل منْ ينهيها.

فاجأتني عبارته، هو الذي لم يعبأ يوماً بكل هذه الترهات كما يحلو له تسميتها، أحسست أنه بات مسكوناً للحظة بأبيه أستاذ التاريخ، ولم أفهم الأمر.

بعدها اصطحبنا مانويل لزيارة الأحياء القديمة (البيازين) التي كان يقيم فيها اليهود، والتي تحوّلت مزاراً للسياح تجذبهم بطابعها الأثري الجميل؛ فالبيازين بشوارعها الضيقة المرتبة تمتد على شكل

مدرّجات من أعلى المدينة إلى أسفلها عند النهر، وقد أدرجت كما أخبرنا ضمن مواقع التراث العالمي.

بعدها زرنا غرناطة:

- حُلم والدي... قال سلطان.

في الطريق إليها مررنا بقرىً منازلها مطلية باللون الأبيض، علامة تسليم الكثير من ساكنيها في القرون المنصرمة، استمرّ اللون تقليداً بعد ذلك التاريخ.

حين وصلنا إلى حدائق العرّيف تفتحت مساحات من الخضرة المذهلة أمام أعيننا، أشجار عملاقة وزهور بديعة التكوين والألوان تحكي عن ترف زارعيها من ساكني القلعة الملكية، قبالتها مدينة غرناطة الشعبية بمبانيها البيضاء المتدرجة.

علق سلطان بانشراح وهو يقف على أعلى نقطة من تلك التلة:

- أبي أضاع عمره في الهراء، التاريخ الذي استمرّ طوال عمره يتحدث عنه، ويحدّث امرأته عنه حتى فرّت من أحضانه، فجنّ جنونه بعد مدة، يبدو لي الآن كشبح... كأساطير، يا له من رجل! إنما المجد حلم الرجال، ومثل أبي من يضيعُ المجد، ومثلي وحدي من يصنعُ الأمجاد...هل تعتقد يا برهان أن فشل أبي هو الذي صنعني!

لم أجبه سيدتي، إذ لم أكن أعلم ذلك...حقيقة، يجب أن تصدقي كلامي.

المتعة الحقيقية يومئذ تجلت في حفلة الفلامنكو، أدّتها لنا فرقة غجرية متمرسة متعددة الأفراد والأزياء.

اصطحبنا مانويل إلى كهفهم الواقع على أحد المدرجات، ارتقينا الأدراج الضيقة الطويلة، وجلسنا في ما يشبه القبو المستطيل الواطئ السقف، على الجانبين قامت مقاعد شعبية كسيت بأغطية مزركشة عتيقة، وغُطيت الجدران بصور مشاهيرَ لا تُعدّ ولا تحصى زاروا ذاك المكان. طرقعتِ الأحذيةُ بدقة وانتظام، وراحت الأقدام تتحرك وفق إيقاعات متوازية محتسبة، دبّت الحماسة في أوصال الراقصين، وأكتافهم ترتفع مشدودة القمصان، نظرات ثابتة واثقة أطلقتها العيون الغجرية السوداء. تفجّرت الحيويّة في عينيّ عمك سلطان، أطربه الصوت القوي الشجي المنبعث من الزاوية اليُمنى للمكان تطلقه مطربة عجوز ذات حنجرة مذهلة الأوتار، وصبية سمراء تلبس ثوباً أحمر متدرج الطبقات راحت تتراقص على نغمة الصوت المذبوح، وهي تلوي عنقها وتخبط قدميها بعزيمة وإصرار أَلِيه، أَلِيه...

رفع سلطان كأسه عالياً، وضعها جانباً بعد رشفةٍ طويلةٍ منها، ثمّ قام يرقص مطلقاً ذراعيه القويتين كأنه زوربا اليوناني بحقّ، واندفعَ يخبط قدميه بعشوائية فتية على أرض ذاك الكهف المغرق في التاريخ. أعاد رفع كأسه عالياً محيياً أصحاب هذا الفن الشعبي

الأصيل الذي يحاكي عنفوان الجسد وتوثبه، وقال لنا بمرحٍ استخفه فجأة:

- الآن الآن... الحاضرُ هو الأهم، كلّ التاريخ هراء، وكلّ تاريخ يجعلنا أبناء الوهم والخيال والقتل هراء.... بصحة هؤلاء الحاضرين الأحياء... نخبك أيتها الأندلسية الجميلة الحاملة دماء الأجداد... نخب الراقصة الرشيقة القدمين ذات الجسد الميّاس...

وعلا التصفيق المدوي في المكان رغم أنهم لم يفهموا شيئاً من كل ما قال!

هل تحبين رقص الفلامنكو يا زهية؟ لا، لا يعنيك أمره، وأنواع أخرى كذلك، كل الرقص لا تحبينه؟ تحبين الثبات، تكرهين كلّ ما هو مهتز يتأرجّح، ها ها ها لا تشبهين عمك يا زهية إذاً في شيء، أنت حقاً لا تشبهينه يا امرأة رغم مشهدك الذي يقول عكس ذلك!

(٦)

تسألين عمن؟ عن سمير جمال. وصلتِ مدام، نعم أنا هو سمير جمّال، بمَ أستطيع خدمتك؟ تفضلي اجلسي، تفضلين الكرسي لا الكنبة، ولا يهمك، خذي راحتك.

نعم، تقولين من؟ سلطان زعتر؟ أوه، يا له من زمنٍ هارب! مرّ وقت طويل لم أرَ فيه زعتر بيك، عشر، عشرون أو اثنتان وعشرون سنة، ربّما أكثر، ربما أقلّ، ذاكرتي صارت حقيبة مثقوبة. لم أعد أرى الرجل، اختفى كأشخاص كُثر سواه، زبائن يروحون ويجيئون، كان زبوناً جيداً ذاك الرجل، حالة نفسية مختلفة استوقفتني مرّات. سابقاً كنت أهتمّ بمثله، الآن أهتم بأمور أخرى. كيف هو في هذه الأيام؟ أها، لا تعرفين عنه شيئاً، ضائع منذ ستة أشهر، شهر كامل أمضيته في البحث عنه، ولا أثر له، ما هذه الحكاية؟ لا أحدَ يضيع سيدتي في هذا العصر الحديث، حتى لو أضعتِ إبرة هذه الأيام ستجدينها، بات العالم رقعة شطرنج مكشوفة، شاشات عملاقة تطلّ على كل من فيه وما فيه، مجرّد نِمال نحن على هذه الرقعة المكشوفة.

سألتِ عنه في كلّ مكان، حتى عبر الفيس بوك وتويتر والأنستاغرام، ولم يفدك أحدٌ بعد، مجرد ادعاءات وأكاذيب، وصور لرجال لا يمتّون إليه بصلة، تقولين أحدهم ألبس شحاذاً بيجاما زرقاء من كتّانٍ مهترئ وقال إنّه عمك، يا عيب الشوم عليه، كلّ ما يريدونه هو المال، ربّ البشر في هذه الأيام، يلتقطونه ولو وُجد على الحذاء، يا لطيف على الدناءة.

بس أنا زعلان على سلطان بيك، والله لا يستحق نهاية كهذه، مضى عام على فقده ذاكرته، لم يعد يعرف أحداً إطلاقاً، ولمَ لم يتصل أحدٌ بي قبل الآن؟ كان الرجل يستشيرني وهو في عز عنفوانه، عندما احتاجني حقاً لم يستفد من خبرتي، يا له من كلام! أنا عن جد زعلان. كنتِ غائبة عن الوطن، وزوجته هي من تولّى زمام الأمور، هي التي عزلته بقسوة عن العالم، ماذا؟ كانت تقيده أحياناً إلى السرير ككلب بدعوى الحفاظ عليه؟ موجوعة أنت وقلبك يتألم لفقده؟ حقك والله هو رجلٌ يؤسف عليه. تعرفين سيدتي أنّ النساء هنّ أصل ابتلاء هذا الرجل. كان لا يكاد ينتهي من امرأة واحدة حتى ينشغل بأخرى.

نساء عرفتهن الجرائد ومجلات البلاد سابقاً، وجوه لامعة براقة تهافت عليها الذكور كتهافت الذباب على الحلوى، وهنّ سعين طوال الوقت للوصول إلى عمّك سلطان. كان الرجل صيّاداً

ليس إلّا، هل تعرفت إلى زوجته الثالثة؟ تلك العجوز الشمطاء التي تجاوزت الستين بثماني سنوات، لا لم تعرفيها، أحسن. أعتقد أنّها بداية أزمة الأعصاب التي أصابته فيما بعد. ثالثة أو رابعة لا أذكر، المهم أنّ أوّل مرة تناول فيها حبوباً مهدئة في حياته كانت بعد زواجه بها. يتصل بي بعد منتصف الليل، ويقول أسرع يا سمير، أكاد أجنّ منها ومن وجودها إلى جواري، تعال خذني من هنا، تقولين لِمَ تزوجها؟ كانت مليونيرة سيدتي، ملياردیرة، تمكنت من دفن ثلاثة رجال تزوجتهم وورثتهم جميعاً ؟ لكن على من؟ عمك مسألة أخرى... كان الرجل قد مُنِيَ بخسارة فادحة في إحدى صفقاته التجارية، ضربة مُسدّدة، قيل إنّ مجموعة من التجار قد اتفقوا على الإيقاع به، ووفّقوا في ذلك إلى حدٍّ بعيد، خسر مبالغ طائلة حينذاك، لم يحتمل الضربة، أراد تعويضاً سريعاً، لذلك تزوج. من رآها معه في ذلك الوقت حسبها أمه، وهو كان يتباهى بذلك، وبعدما جعلها تسجل الكثير من شركاتها ومنازلها التي ورثتها عن أزواجها السابقين باسمه في الدوائر العقارية، عاد يستفزّ النساء الصغيرات من جديد، يدفعهنّ للتغزل به والتهافت عليه أمام تلك المسكينة. تسألينني ماذا كان يفعل؟ يجلس مثلاً وإياهنّ على الشاطئ، يلوحون ظهورهم تحت أشعة الشمس، يتبادلون النكات البذيئة تاركاً زوجته تحت المظلة، وإذا أحبت الاقتراب صرخ بها.

- ابقي يا امرأة حيث أنت تماماً، الشمس هنا حارقة ستؤذين بشرتك السميكة الحساسة.

فتعاود المرأة التمدد على كرسيها مقهورة، وتعلو الضحكات الصاخبة من الأجساد المدفونة في الرمال الساخنة. كان عمك فاجراً بحقّ. أعتقد أنّ زوجته تلك قد فقعت مرارتها منه. وجدوها ميتة في غرفة نومها: يداها تقبضان بعنف على غطاء السرير، وعيناها تحدقان باتجاه المرآة. لم يعرف أحدٌ ماذا رأت حتى انفجرت مرارتها؟!

المهم سيدتي، أني كنت أتابع عمك عندما تتعب أعصابه، وأنت تريدين مني الآن معرفة الحالات التي سببت توتره، ربّما تدركين شيئاً عن حالته الراهنة. على كل هو كان إنساناً مرهف الأعصاب، مهما قيل لك عن رباطة جأشه وعن اعتداده بذاته وعن قسوته الفائقة، نعم الرجل كان حساساً. أتعلمين أني اضطررت مرة للسفر معه إلى استانبول للإشراف على نقاهته النفسية هناك؟

فعمّك كان يعشق تلك المدينة، صحيح أنه كان يُتم فيها صفقات أسلحة وأقمشة وأحذية وموادّ غذائية وسجاد وكلّ ما يخطر على البال، لكنّ الحق يقال هو كان يحبها، حتى إنه ادّعى ذات مرّة أن جذوره تنتهي إلى إحدى الأسر التي انتقلت من هناك

واستقرت في بلادنا أيام كانوا يحكموننا، هكذا برّر سبب حنينه الدائم إليها.

أذكر يومئذ أنّا تغدينا في شارع الاستقلال الذي تتباهى به تلك المدينة، جبنا الشارع طولاً وعرضاً، تسكعنا أمام حوانيته كأي سائحين أجنبيين، وأنت سيدة وتدركين أن رجلين بوسامتنا كان يسهل عليهما اجتذاب الفتيات، عمك يتحكم في النوع، العمر، الطول، العيون، البشرة وما إلى ذلك... يحسن الانتقاء، يختار الأجمل له ويترك لي الأخرى، لم أكن أعترض، أسعى للتسلية فقط، هو سيدفع وأنا أتسلى، عدالة مقبولة فأنا صاحب ضمير في هذه المسائل.

المهم أنّا اصطحبنا فتاتين معنا بعد أن أنهك الرجل سيقاننا في اللف والدوران وفي مشاكسة المارة من خليط الناس الهائل السائر هناك، وبعد أكْل الكستناء التركية المشوية، استقللنا سيارة أجرة حملتنا إلى منطقة المارينا، ثم اختار لنا مطعماً فاخراً تقدّم فيه الوجبات الطازجة دائماً من ثمار البحر المتنوعة إلى الأسماك المختلفة الأنواع والحجوم، شربنا ويسكي Chivas، راح هو يشربه خالصاً بلا ثلج وبلا ماء، بينما مزجت كأسي بكمية كبيرة من المياه، يشرب ويضحك صاخباً في أنحاء المكان، النادل يبتسم بلطف ويسرع إلى تلبية طلباته، يستطيع ذاك الرجل تجيير الجميع لخدمته،

كانت له هيبةٌ معتبرة، لا يلتفت إلينا النادل، يتجه دائماً إليه، حتى إني شرقت بريقي، وأنا أبتلع كمية كبيرة من الويسكي، شعرت أني أكادُ أموت حينذاك، لكنه اتجه إليه هو بالماء، وكاد يضربه على ظهره برفق!

المهم أنّا بقينا يا سيدتي نأكل ونشرب حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، عدنا إلى فندقنا الكائن في ساحة التكسيم سكوير، أقدامنا ثقيلة، ونحن نغني قصيدة عمر الخيام الشجية:

فما أطال النوم عمراً

ولا قصّر في الأعمار طول السهر...

يطلق عمك العبارة، ثم يلحقها بصفير طويل مُنغّم:

- هذا شاعر حقيقي يفهم ويعقل، عاشق السهر أنا، في صحة صديقي عمر الخيام.

للأسف لم نستطع القيام بواجباتنا الذكورية المفترضة في تلك الليلة، كانت أوصالنا منحلة تماماً.

عند الضحى استيقظنا فوجدنا أنفسنا نحن الأربعة بملابسنا كاملة متمددين على أرض الصالون الملحق بغرفة عمك، نفترش الموكيت الأحمر، وقد وضعت إحدى المرأتين ساقها فوق رقبتي، عمود صلب وحياتك، بقيت عروق رقبتي متشنجة بسببها مدة يومين كاملين.

لن أطيل عليك، عندما بلغت الساعة الثانية عشرة ظهراً كنت أنا وعمك نصلي في المسجد الأزرق الكبير، مسجد السلطان أحمد ذي المآذن الستّ، نقد سلطان المرأتين مبلغاً معتبراً من المال، وكاد يدفعهما دفعاً للمغادرة. استحم سريعاً وطلب مني أن أفعل، ثمّ أصر على الانتقال الى القسم الآسيوي من استانبول، الحاجة ملحّة أكد لي:

- لا بدّ لي من الصلاة هناك.

لم أفهم إيمانه المفاجئ، ولم أدرك سبب الإلهام الحاصل، لكني أذعنت رغم النعاس الذي يثقل أجفاني، ورغم عروق رقبتي المتشنجة. صلّى عند وصوله ثم تربّع وأغلق عينيه باستكانة، أمضى حوالى الساعة مغمض العينين، جلتُ في كل الأنحاء والزوايا، تفحصت كل النساء الجميلات اللواتي يدخلن المسجد من أجل السياحة، تفرّست في الوجوه وعاينت السائحات الأجنبيّات القاسية المؤخرات، حاولت تعداد الثريات المعلّقة، فشلت، كان ذهني دائم الهرب مني، وكنت متألماً بشدة، انصرفت وقتاً ألعن تلك السيدة التي أراحت ساقها على رقبتي.

عدت إلى جواره، تمددت ثم غفوت مصعوقاً من رائحة الموكيت الأزرق المشبعة بعرق الأقدام، برطوبة المكان وبعبق التاريخ... خليط يُعجب خاطرك سيدتي لكني غفوت.

كانت الساعة قد بلغت الثانية ظهراً عندما خبط سلطان كتفي بيده، وقال:

- هيّا.

- أنا جائع.

- فيما بعد.

ونحن نسلك الطريق المؤدي إلى كنيسة آيا صوفيا تناولت كعكة مقرمشة الحواف من أحد الباعة الواقفين، التهمتها بلذة فائقة في حين راح عمك يقضم بلذة قطعة من البطيخ التي يبيعها بعض الأولاد المتجمهرين هناك، قطّع بطيخة في وعاء أمامه، وراح يناول زبائنه شرائحها، فيلتهمونها بمتعة، إذ تنساب خيوط الماء الحمراء على أفواههم وملابسهم.

مسح رفيقي فمه بظاهر يده وأشار إلي للانطلاق. ولجْنا من بوابة المدخل، حديدية ضخمة ناتئة الرسوم والأشكال. الدرج الذي كان علينا ارتقاؤه بازلتي أخضر، زلق الملمس يرتفع وئيداً، زلاقته جعلت عضلات ساقيّ تتصلب تماماً، لكن سلطان رفض التوقف ولو للحظات، كان متحمساً للغاية ومشحوناً بطاقة هائلة، سألني وأنفاسي تكاد تغادرني:

- هل تعرف كم يبلغ ارتفاع هذه القبة التي فوق رأسينا؟

نظرت إليه بعتب عميق، وصدري يعلو ويهبط بحدة بسبب الإرهاق الشديد الذي لحق بي، ولم أجب، فقال:

- يبلغ خمسة وخمسين متراً، أي إنها أعلى من قبة معبد البانتيون الشهير، وقطر القبة يصل إلى الثلاثين متراً، ههنا تزاوج الفنّ المعماري الروماني والفن الإسلامي... الشرق والغرب قد يلتقيان كما ترى، وهذا بالضبط ما يجعل من المكان الذي نقف على بلاطه تحفة معمارية نادرة، هل تعرف هذه الحقيقة؟

أعتقد أنه عندما طرح سؤاله هذا كانت عيناي قد خرجتا قليلاً من محجريهما، لكنه لم يتوقف لأنه لم يكن يراني، كانت لديه القدرة على ألّا يرى أحداً سواه. استمر يرتقي متوثباً إلى أن وصلنا إلى ما يشبه الصالة الدائرية، ظهر البلاط الرخامي لامعاً براقاً تحت القبة. اخترق النور الطبيعي القاعة مضفياً دراما صارخة على الجزء العلوي منها، وذلك عبر فتحة مركزية شبيهة بتلك الموجودة في البانتيون في روما - كما راح يخبرني - وعبر سلسلة من النوافذ المرتفعة ذات الزجاج الملوّن، والتي تلقي أشعة من الضوء المركز والمتماسك الذي يصل الأرضَ مُحدثاً زوايا قائمة.

عندما مشيت مع عمك في أنحاء القاعة استحوذت عليّ تماماً فسيفساء السقف الأسطورية، نسيت تصلب كلّ شراييني، ووجدتني أغرق في أجواء سحيقة من الزمن. شعرت بالأرواح

تتعدد وتتجاوب في داخلي، بدا الزمن لحظتها كرة شديدة التوثب لا تستقرّ في مكان.

رحنا نستعرض اللوحات المعلقة، وقد هدأت أنفاسي: أيقونة مريم العذراء والطفل يسوع المسيح، أيقونة يسوع المسيح يتوسط مريم العذراء ويوحنا المعمدان، أيقونة البلاط الإمبراطوري، لوحات إسلامية تمثل أسماء الله الحسنى، وأسماء الخلفاء المسلمين الأربعة أبي بكر الصديق، عثمان بن عفان، عمر بن الخطاب،علي بن أبي طالب، وواحدة طُرز عليها بالخط الكوفي اسم الحسين، وأخرى حملت اسم الحسن.

- موزاييك من التراث البشري الديني يتآلف بسلام هنا، وهذا مصدر فتنتي بالمكان. ما رأيك؟

- أنت تفاجئني، لم أكن أعرف أنَّ لك اهتماماً بكل هذه الأمور.

اكتفى بتوجيه نظرة طويلة إلى عينيّ.

قلبت شفتيّ بلا مبالاة.

جلس على الرخام الزيتي البارد وأشار إليّ للجلوس، حين استويت راح يخبط على فخذي الأيسر براحته اليمنى ويضحك، وضع رأسه بين يديه، رجَّهُ قليلاً ثم رفعه، حدّق ملّياً إلى بعض

النقوش التي زينت القبة ثم أنزله ببطء، نظر إلى الفراغ، ثم قال بما يشبه الهمس بعد أن خفَّت حماسته:

- منذ عشرة أيام فقط كنت في استانبول، عرّجت عليها بعد أن أنهيت أعمالي في أنقرة، لم أخبرك بذلك طبعاً.

لم أعلق، استمر يحدّق إلى الفراغ، وهو يقول كأنما ليحدث نفسه قبل سواها:

- كان المطلوب هذه المرة كميات من السلاح، كميات كبيرة، الخطابات السياسية نارية في هذه الآونة، لا بد من أسلحة نارية إذاً. أنت لا تعرف هذا الأمر يا صديقي الذي يتعب بسرعة.

- على فكرة عليك إجراء فحص دقيق لشرايينك ولقلبك أنصحك بذلك - أقول إنك لا تعرف أن هناك علاقة واضحة بين الطلقات النارية وبين التصاريح النارية، هذه الأخيرة تدخِل إلى قلوبنا السرور والبهجة بحقّ، والحمار فقط هو الذي لا يكتشف المصالح المشتركة بين تجار الأسلحة وتجار السياسة، عرض وطلب وبورصة أسعار لا تستكين، كله مرتبط بالوضع السياسي في البلاد، وبالسجال السياسي. عندما يحتدم يزداد الطلب ويهتاج الجميع، وكلما قلّلنا البضاعة المتوافرة في الأسواق ارتفعت أسعارها ارتفاعاً جنونياً، وراجت المزايدات وكثرت التدخلات المحلية،الإقليمية وحتى الدولية.

على كلٍّ سُوقنا في هذه الأيام ناشطة للغاية، فنحن المصدر الأساسي الداعــم لكــل الحركــات التغييرية المسلحة في المنطقة _ عفواً أنا أحدثك سيدتي عن فترة الثمانينيات _ الآن الوضع بات مقلوباً وعلى كفالتي، وتعرف - أكمل عمّكِ - أن هذا البلد الجميل هو مصدر رئيسي لاستيراد الأسلحة؛ فالجماعة، جماعته كرماء يزودننا بمختلف أنواع الأسلحة وذخائرها: قذائف، قاذفات صواريخ كلاشينكوفات، مسدسات بلجيكية، كندية، مسدسات غولت الشهيرة... الجماعة كرماء ونحن لا نبخل عليهم، نبادلهم الودّ بودّ.

كانت الصّفقة التي أتممتها ناجحة للغاية، تمكنتُ، قال عمك، من تلبية حاجات أهمّ الزبائن عندي، رجالات في أحزاب متشددة علينا بالتأكيد أن نشدّ أزرهم في كفاحهم، أحدهم أصرّ على الحصول على بندقية بول دوغ هل رأيتها يوماً؟ بندقية صغيرة الحجم تطلق رصاصاً عيار ٩ ملم ولا تخطئ هدفاً أبداً، غالية الثمن، يبلغ سعرها السبعة آلاف دولار، طلبت منه ثمانية آلاف وخمسماية، قال أدفع، المهمة دقيقة أحتاج إليها، ومعها كاتم للصوت.

الرجل المطلوب مهم، نكرمه بها، ضحك وضحكت معه. أحبّ إرضاء أمزجة زبائني أحد أسرار النجاح في المهنة.

بعد يومين رأيت صورة الرجل المهم على الصفحة الأولى

من الجريدة - الفوضى تعمّ الغرفة والدماء تغطي ملاءة السرير، وهو يبدو نائماً في هدوء شاحب، عينه اليمنى متسعة قليلاً، خيّل إليّ أنها تنظر إلى عينيّ.

الطلقات التي وُجدت هي طلقات بندقية بول دوغ، بعتها لقاتله وشاركته في فرحة حصوله عليها، والتباهي بمداعبتها وبامتلاكها.

كانت المرة الأولى التي لا أنام فيها، سرّ نجاحي في الحياة هو نومي العميق يا أبا سمرا، ضاجعتُ في تلك الليلة امرأتين متتاليتين على سريرين مختلفين، في غرفتين مختلفتين، احتسيت زجاجة ويسكي Dimple كاملة، ولم أترنح، ولم يتزحزح وجه الرجل من أمامي، بقي منتصباً، وظلت عينه اليمنى تنظرني بأناةٍ وهدوءٍ باسم كأنما هو يعاتبني برقة وحنان.

كنت ألتقيه في مناسبات ثقافية عامة، أدعى إليها وألبي بعضها من حين إلى آخر لزوم العمل ليس إلّا، وهذه أسرار أخرى ليس من الضروري أن تعرفها جميعاً، كلام الرجل كان يصل إليّ، الوحيد من بين كل من أصغيت إليهم في الحياة استطاع اختراقي بحديثه، منطقُه كان يفحمني، يتحدّث عن القيم ومصالحة الأنفس مع ذواتها، والأجيال المتعاقبة وحساب التاريخ، والضمائر التي لا تموت... فلا أستطيع تسفيهه بيني وبين نفسي كما أفعل مع آخرين سواه.

حنى سلطان رأسه، ونظر إلي بحدة، وقد التمعت عيناه، وهو يسألني:

- تعتقد أني سأقيمُ في الجحيم يوماً ما؟

تمهلت قبل أن أجيب، أعرف أن مزاجه السيئ هو ما يدفعه لطرح مثل هذا النوع من الأسئلة. أجبتُ برويّة:

- لا شيء مؤكداً، كلنا عُرضة لأن نكون هناك.

- عليك أن تكون جريئاً، وأن تجيبني بصراحة.

- حسناً أنت تستحقّها بجدارة.

قلت ذلك، وضحكت بخفة.

- لكن كيف ستكون؟

- أنظر ثمة صور مريعة عنها في الكتب المقدسة، لكني لا أحب الخوض في ذلك، تلك المسألة تبدو شائكةً بالنسبة إليّ. أفضّل مادمتَ معجباً الآن بهذه الآثار الفنية المعلقة على الجدران حولنا أن أحدثك عن الفن وعمّا يقوله في هذه المسألة، لكن الشعر منه هذه المرة، أعني أني سأخبرك قليلاً عن الشاعر دانتي الذي صوّر في قصيدته الكوميديا الإلهية ما سمّاه الجحيم، فرصف الناس المذنبين داخل شكلٍ يُشبه القمع، الأقرب إلى فتحته الأخيرة هم الأكثر استحقاقاً للنار، ووصف لنا مثلاً كيف يجري تعذيب المترددين الذين لم ينضموا إلى أي حزب من الأحزاب المتصارعة،

وأنت واحد من هؤلاء طبعاً، إذ إنك لم تستطع تحديد موقفك يوماً، عملتَ مع الجميع ولم تكن مع أحد، وهذا سيِّئ، هناك يظهر الناس أمثالك عراةً يلسعهم النحل والذباب وتسيل من عيونهم الدموع الممزوجة بالدم، وتزحف تحت أقدامهم الديدان المقززة، أعتقد أنك قد تلقى هذا المصير يا صديقي، فأنت لست من فئة العاشقين مثلاً حتى تُقتل سريعاً كفرانشيسكا التي أحبت أخ زوجها، فقتل الزوج الاثنين معاً، لا لستَ من هواة الحب كما أعتقد، ولست لبونيفاس، لذلك لن تكون لك أوجاعه ولا آلامه، أكاد أجزم أنك ستلقى مصير الفريق الأول ها ها ها، أما جحيم شاعرنا العربي أبي العلاء المعري فقد كانت ألطف، إنها جحيم للمثقفين فقط، وأنت كذلك لا تستحقها، فلا أستطيع ما دمنا نتحدث بصراحة إدراجك ضمن هذه الفئة!

- ولكن قل لي لمَ ورثنا عن آدم خطيئة العصيان؟ ولمَ نُحاسب على ما أُورثناه بالقوة؟

أذكر أني اكتفيت بالتحديق إلى السقف المزخرف، لم أعرف في الواقع كيف أجيب.

لقد رسمت لنفسي طريقاً قويماً بعد سلطان، ولا أريد لقلبي أن يعود إلى الوراء، أنا الآن أصلي كل يوم سيدتي، بتّ مستنيراً تائباً، وسأعود إلى التراب الذي منه أتيت، عمّك كان حقبة ملتوية

في حياتي، فلا تسأليني أرجوك بعد الآن عن زمنه، زمن سلطان كما أسميه لنفسي أحياناً. أريد لعقلي أن ينسى ذاك الرجل، وكلّ الذنوب التي كان يخبرني عنها في لحظات صفائه، فلا أحاسب نفسي طوال الوقت لأني لم أردعه أو لم أبلّغ عنه.

أولئك المجرمون من يصنعهم سيدتي؟ هم يصنعون أنفسهم بمفردهم أم نحن من يقدّم لهم حجارة البناء؟ أخبرتني أن الرجل لا يعرف طريقه إلى منزله، وأن عقله ما عاد يعرف شيئاً عن كلّ ما كان؟ يستحق ذلك بجدارة صدقيني رغم أني أحببته في وقتٍ سابقٍ من الأوقات، لكن هل أحببته حقّاً أم أنه شبحٌ عشتُ معه وهم الحياة، وها هو الآن يسقط في النسيان؟.

(٧)

هل تحبّين أن أرسمك سيدتي؟ تريدين بورتريه أم لوحة كاملة لحضرتك؟ قرري وأنا سأحدد لك الوضعية والملابس وأبعاد النظرة وطريقة الابتسام، ليس عليك سوى أن تطلبي لتجدي، خبير أنا بالطبيعة الإنسانية وبطبيعة النساء تحديداً، أستطيع أن أقبض على هذا الولَع في عينيك، بداية الوحشة، الشكوى من الانتظار، الرغبة في الفرار من الأماكن المغلقة، سأعكس كلّ ما تشعرين به من سموٍّ عمّا يحيط بك... وجهك الصغير الناعم يُغري بجنونٍ فرشاتي وأناملي وكلّ ألواني. عفواً لم أسمع ماذا تقولين؟ لا تريدين مني أن أرسمك، أفّ ظننتك....سامحيني على تسرّعي.

أها تسألين فقط عن رجل تحديداً؟ عن سلطان بيك زعتر، يا لطيف، ولمَ تحبين استحضار إبليس إلى مرسمي في هذه الساعة؟ أها هو عمّك؟ طيب أعتذر عن التوصيف، أسحب كلامي، تبحثين عنه وتريدين أي شيء يساعد على العثور عليه، لكنّ ذلك كان منذ

زمن طويل سيدتي. تنبشين الأموات من قبورهم وروائح جثثهم لاتزال تفوح.

تقولين ستدفعين؟ أنت مستعدة للدفع شرط أن تحصلي على أشياء ملموسة، طيب على مهلك يجب أن تمنحيني وقتاً حتى أتذكر وأستعيد تلك الأيام البعيدة وحتى أجد ما عنه تبحثين.

هل رسمته يوماً؟ أكيد بالطبع رسمته أو رسمت ما يشبهه، ما يوحي به أويشي ببعض ما كان الرجل عليه، لم تفهمي ما أقول؟ طبيعي جدّاً. أصلاً أنا لم أكن أفهم في البداية، بعد ذلك اكتمل إدراكي وفهمي، احتجت وقتاً في الحقيقة، المعرفة سيدتي لا تأتي دفعة واحدة، إنما نحصّلها بالتدريج، تحتاج ذكاءً ودُربة.... لن أتركك تنظرين باستغراب هكذا، سأشرح لك فأنصتي لو سمحتِ، وبعد ذلك تفهمين.

عمّك سلطان لم يكن يهتم بالرسم واللوحات، ولم يكن هو المقصود بالرسم بداية، زوجته كانت الساعية لأن تُرسَم، انتظري قليلاً، لا ربما هي ليست زوجته، إنها تلك المرأة التي كان يريد الزواج بها، وهي على ما أعتقد كانت تلهو به، أو ربما كانت تحبه، وبعد ذلك قررت التلهّي به؛ أظن أنها المرأة الأولى التي ركّبت له قروناً، هاهاها وألحقت به ألماً كبيراً إنْ كان ذاك الرجل ممن يتألمون.

لكنها كانت تُحفة، أعني تلك المرأة، لوحة حقيقية سيدتي تستثير هِمم كلّ الفُرَش وأنقى الألوان، يا إلهي تذكرت الآن تلك السيدة أزهار، نعم أزهار كان اسمها، وهي الفلّ والرياحين وكل الورود والزنابق البيضاء التي تفتحت توّاً، الرسّام في داخلي لم ير أجمل من عينيها المخمليتين، ولا من بشرتها البلورية الفتّانة، في المرأة سَكَنَ سحرٌ يستدعي كل عبقرية.

طوال الوقت كنت أحاول رسم الخطوط ومزج الألوان التي تستطيع نقل جمالها إلى القماشة التي بين يدي، أتعبني رسمها لكثرة ما كانت متطلبة دون... أن تطلب.

كان جسدها شفافاً كإناء كريستالي، لها وجه خمريّ مُسكر، وأذكر جيداً أنها كانت تتقن الاسترخاء، استرخاءً خفيفاً جذاباً ليس كلّ الناس يستطيعون بلوغه. تتمدّد وتسمح لرشاقة قوامها أن تستكين على الكنبة الوطيئة، ولجيدها الملتمع الناصع أن يتوهج، كانت فيها أرستقراطية رائعة عفوية، حتى ريشتي كانت تصبح أكثر خفّة وألقاً حين تبدأ برسمها، لكنها كانت لا تفتأ تطلب وضعيات جديدة، فمثلاً كنت قد قطعت شوطاً في رسمها وهي متمددة على الكنبة الوحيدة التي أملكها في مرسمي حين قالت لي يوماً بشيء من التأثر ظهر على وجهها.

– كنت أودُّ... هل تدري؟ بصراحة... ما عدت أريد أن أكون

غارقةً في هذا الثوب الفاخر الذي أهداه إليّ سلطان روحي، ولا أرغب في التباهي بهذه القلادة الماسية البراقة التي طوّق عنقي بها يوم عيد ميلادي الأخير، أنا أودّ أن أرسم في ثياب بسيطة، وأن أكون جالسة في ظلال الخضرة، في ظلال مرج يلوح فيه من بعيد فرسٌ جامح أو نخيلٌ يترنح، أو يتبارى فلاحون بمناجلهم اللامعة يقتطعون أعواد القمح الذهبية، أو حتى أنْ أقف أمام نافورة ماء تصيبني برذاذها، شيء أبدو من خلاله قريبة من الناس وعفوية، بعيداً عن هذه الملابس البورجوازية التي تقتل الروح، وتفتك ببقايا المشاعر. البساطة أيها العبقريّ، أريد المزيد من البساطة، يجب مراعاة طموحات حبيبي سلطان السياسية، هل تفهمني مُلْهَم، أنا اسمي ملهم سيدة زهية؟ واضح، تهزين رأسك؟ أوكيه الآن بدأنا نتفاهم قليلاً.

بالنسبة إليّ كان ذلك الأمر مزعجاً للغاية، إذ لا أذكر أنّ أحداً من موديلاتي كان يقاطعني أو أنه قد أوقفني سابقاً. لكن تلك السيدة كانت قد سحرتني تماماً كما فعلت مع السيد سلطان. وأنا كنت أنظر دائماً إلى أمثالها من المخلوقات ككائنات منيعة لم تُخلق إلّا لتنقل في سيارات فخمة، بصحبة سائقين يرتدون ملابس أنيقة، وينتعلون أحذية لامعة نظيفة، تمرّ من بعيد وتلقي عليّ، أنا الرسّام المتواضع،

نظراتها المترفعة. وإذا بواحدة من هذه المخلوقات البديعة تدخل عليّ مرسمي، وتسمح لي برسم صورتها، وتدعوني الى الغداء في منزل من سيصبح زوجها، أيُّ حلم؟

كنت منتشياً هائماً، وكنت أفكر دائماً كيف سأعطي العينين الدافئتين المزيد من اللمعان والتعبير لكي تصبح اللوحة أكثر شبهاً بالنموذج الحي الذي يغلي أمامي، وقد أفلحت إلى حدّ بعيد، وصار الشبه كبيراً بشكل صارخ في آخر المطاف، ولا أخفيك أني تذكرت مايكل أنجلو حينئذ وهو يطرق تمثاله انفعالاً ويقول له: (تكلّمْ إذن يا موسى)، لكن ما كان بإمكاني طرقها طبعاً...ولقد كوفئت بكلّ شيء سيدتي، بابتسامات سخية، بنقود، بمديح، بمصافحات ودية، وبعناقات سريعة، وبدعوات الى الغداء، وبجوائز معنوية كثيرة، وكوفئت كذلك... بمعرفة السيد، سيد القصر المنيف... سلطان بيك زعتر.

كان سلطان بيك يحدث دائماً ضوضاء كبيرة، رجل من الطراز الذي يصعب إرضاؤه، إنسان مشغول، معجوق، عجول، من الطبقة الراقية الأكثر انشغالاً أكثر من أي صنف آخر من البشر، وكان لهوفاً بحقٍّ.

تعرّفت إليه، وقد قامت بيننا علاقةٌ من نوع خاص، سريّة للغاية، أكثر مما تتخيلين، فقد أرادني أن أكون يده اليمنى، عينه

السادسة التي ترى ما لا يراهُ الآخرون، إبداعه ونبوغه، وامتيازه على سائر العالمين.

غالباً ما كان يستدعيني البيك إلى سهراته، فيطلب مني أن أراقب ضيوفه من بعيد بصمت، دون أن يشعروا بوجودي، حتى إذا أطال المكوث مع أحد هؤلاء، كان علي أن أتنبّه إلى أنه سيكون لوحتي التالية، فأتحايل طوال السهرة كي ألتقط له صوراً في وضعيات مختلفة وهو في غفلة عني، لأقوم بعد ذلك برسمِه في الوضعية التي يحدّدها السيد سلطان بعد أن يرى اللقطات جميعاً. وعلى الرسم أن يكون مُتقناً وسريعاً، ومذيّلاً باسم الرسام سلطان بيك زعتر!! أي والله بات عمك في الآونة الأخيرة من حياته رسّاماً، موهبة ربّانية تفتقت أزهارها وهو يغادر العقد الخامس من عمره، ويفتتح عامه الستين.

وقد أدركت بعد فترة أنه يستحيل عليّ توفية العمل حقّه، فالزّبون لن يجلس أمامي، لذلك كان علي أن أستعيض عن كلّ ذلك بالبراعة وبحركة الفرشاة السريعة، وأن أمسك بالسّمات العامة الكلية، وألّا أتعمق في التفاصيل الدقيقة فلا داعي لها إذ كان من المستحيل تتبّع المرسوم بدقائقه.

وكلّ ذلك كان مقبولاً مع الرجال، لكن بعد أن ذاع صيتُ سلطان بيك كرسام عبقري مدهش عظيم الذاكرة، يلجأ إليها فقط

حتى يتذكر أبطال رسوماته بعد مغادرتهم سهراته، شهد الرجل إقبالاً عظيماً من قبل النساء على الخصوص، فكلهنّ أردنَ منه أن يرسمهنّ بدقة كذلك، وأبدين استعدادهنّ للجلوس أمامه ساعات طويلة في مرسمه السّريّ، والتعري أمامه إذا أحبّ ذلك، ومتى استدعت نوازع عبقريته مثل هذا الفعل المبهج لهنّ، فما الداعي لاستحضارهنّ من الذاكرة ما دمن حيّات يرزقن ويتمتعن بالصحة والحياة وبالحيوية المطلوبة؟!

وكنت أسمعهنّ أحياناً وهنّ يطلبن منه بعض الطلبات، فسيدة قبيحة مثلاً طلبت منه أن يعطي الأولوية للنفسية والطبع ليس إلا، فليهمل تفاصيلها تماماً وليتغاضَ عن بقية الأشياء، فيغفل كل النتوءات، ويخفف جميع العيوب والأفضل أن يتحاشاها بالمرة إذا كان ذلك ممكناً، وليظهر فقط النفسية المرتاحة المنطلقة.

باختصار كلّ النساء أردن أن يكنّ جذابات، يُوقعن في عشقهنّ من يرى رسمهنّ من أوّل نظرة.

وأنا كنت أحرص يا سيدتي على أن يكون المرسومون في غاية الانشراح حتى صاروا ينعتون عمّك بالرسام العبقري المتفائل. وبات الرجل يصطحبني إلى معارض الصور حتى يُنمّي حسّه الفنيّ المرهف، ولكي تكتسب فيما بعد تصريحاته الحادّة عن الفنّ والفنانين مصداقية وواقعية، ولكي يؤكد أن امتيازات وهمية كثيرة

قد نُسبت زوراً وبهتاناً إلى فنانين قدامى قوميين، وآخرين أجانب في حين بقيت «مواهبنا الوطنية على جانب كبير من التجاهل»، وأنّ الحداثة والبهاء الحقيقي، والعبقرية وقوة الريشة والألوان إذا كانت موجودة فيجب البحث عنها الآن فقط في عصرنا الراهن الحافل بالأحداث العنيفة والمتغيرات المتسارعة، أي نبحث عنها في حضنها الطبيعي على تراب أرضنا، وبديهيّ أن يتطرق تلقائياً عندها إلى نفسه المرهفة المبدعة. كان يقول مثلاً:

- أنا لا أفهم ما معنى الجلوس طويلاً لإنجاز لوحة ما، فالفنان الذي ينفق عدة شهور يرسم لوحة ليس فناناً برأيي، إنّه مجرد صانع مقلد للأصل، ولا يمتلك موهبة حقيقية! العبقرية الحقيقية تتمثل في أن تبدع بسرعة وبإتقان، ومن الذاكرة، فأنا مثلاً رسمت لوحة بشّار بيك في مدة يومين فقط، ولوحة مسعود بيك في يوم واحد فقط، أما رأس مظفّر بك فقد استغرق مني رسمه ست ساعات ليس إلّا. لكنّ لوركا الشقية، تلك الفاتنة المحبوبة فقد استهلكت من أحلامي ورشاقة أناملي مدة يومين كاملين حتى تمكنت من نقل جوهر جمالها وبهائها إلى القماش المشدود ضمنَ الإطار المذهب.

هكذا ينتزع عمك الآهات من زوّاره عندها، فيعلقون على موهبة هذا التاجر الفذّ، والسياسي المحنّك، العبقري والموهوب

في تحريك الرؤوس والأموال والوجوه والأجساد، عبقري في كل شيء عمّك سلطان ذاك.

الإحراج الحقيقي سيدتي تمثل في إلحاح بعض المجلات والجرائد على إجراء مقابلات حية معه، واحتمال أن يضطر للإجابة عن بعض الأسئلة الفنية الدقيقة، لذلك اقترح بسببٍ من ضيق وقته كما ادعى، أن تُرسَل إليه الأسئلة مطبوعة بدقة، وهو حيث يكون: في قصره، في مكتبه، في الطائرة أو حتى في بيت خلائه سيتكفل بالإجابة الدقيقة عنها، وبإرسالها مطبوعة كذلك بدقة، ومرفقة بلوحة جديدة له لم يسبق لأحد أن رآها في مرسمه، أو في أي معرضٍ سابق.

وسأعترف لك بسرّ صغير سيدتي مفادُه أنّ عمّك هذا قد حقق مكاسب هائلة من رسوماتي، فهي لم تكن مجرد هدايا لأصدقائه وصديقاته، إذ بعد أن اشتهر وكأي إنسان في الحياة ممن يصنعون الكذبة ثم يصدقونها، صدّق نفسه، وآمن الرجل بقدرته العبقرية الفذّة على الرسم، فصار يحضّني على المشاركة في معارض الرسم المحلية والإقليمية، وطمح أن نشارك في المعارض الدولية كذلك.

وبما أنه كان عنكبوتي الصلات والعلاقات، وشخصيات كثيرة في المجتمع القريب والبعيد تسعى إلى نيل مرضاته، وتقبيل يده وأحياناً حذائه لتمرير ما تريد تمريره فقد تهافتَ أصحابها على

شراء لوحاته مهما غلت أثمانها معتبرين ذلك نوعاً من الرشوة الأنيقة التي تضمن لصاحبها نفاذ مشروعه العالق، وبروزه إلى الضوء، وهذا ما كان يحدث فعلاً.

هكذا كانت رسوماته، أعني رسوماتي بالطبع، هي الأغلى ثمناً في المعارض، والأكثر مبيعاً على الإطلاق، ولن أبالغ إذا قلت إن لوحاته قد انتشرت في سرعة قياسية على امتداد مساحة الوطن المحلية والإقليمية، وأنها احتلت مواضع الصدارة في كلّ صالات الاستقبال في الفيلات والقصور الفخمة، بل إنها دخلت بعض القصور الرئاسية المتقدمة والفاعلة، باعتبار أنّ بعضها ليس فاعلاً، وهذا أمر، أي وجودها، حقيقي ومثبت بالوقائع وبمعاينة الشهود، بل إنّ بعضها قد تم انتهاكه، في السنوات الأخيرة، حين اقتُحمتْ تلك القصور خلال ما عُرِفَ بربيعنا العربيّ بأحطّ الطرق وبأشنع الصّوَر، كأن تُمزَّق بشراسة مثلاً، أو يبول أحد الثائرين عليها نكاية بمالكيها، لا براسِمِها، كما قيل بعد ذلك بفترة، ورغم ذلك فقد ساءني الأمر للغاية، وشعرتُ بجرحٍ عميقٍ في كرامتي.

المهم سيدتي أنّ عمك رفض إعطائي أكثر من نسبة عشرة بالمئة فقط من قيمة المبيع، وهو أمر كان يغيظني بصراحة، لذا فكرت غير مرة في طريقة للانتقام منه، إلى أن أيقنت أنه ليس ثمة سبيل أمامي لتحقيق ذلك أفضل من حَوّائِه... نعم نعم سيدته

الموعودة الحسناء التي ينوي الاقتران بها، فكرت في ذلك ونفذت سريعاً، فأخبرتها يوماً أني مشتاقٌ إلى رسمها، وأني قد بدأت فعلاً بلوحة رائعة لها، تبدو فيها نقية طاهرة جميلة كعروس مزهوة، آسرة بتواضعها ستفتن الدنيا برموشها السخية، وبعينيها المخمليتين.

تَحمسَتِ السيدة المؤمنة بجمالها لرؤية لوحتها...

عندما دخلت مرسمي ذُهلت من كلّ الوجوه التي رسمتُها، كلّ اللوحات التي عرضها سلطانها كانت نسختها الأولية عندي مع الصور الفوتوغرافية التي التقطتها خلسة، والتي عُلقت بدقة على طرف الإطارات الخشبية وتحتها أسماء أصحابها.

فتحت السيدة فمها الجميل طويلاً، وتركت شفتها السفلى المكتنزة تتدلى بحرية تامة أثارتني، لكني كنت منشغلاً بفرقعة كلّ أكاذيب سلطان أمامها، وكلّ ادعاءاته الفارغة، وبكشف سرّ عبقريته الزائفة الملعونة من قبلي، جحظت عينا السيدة الجميلة، وكادت تطلق الصوت عالياً من حنجرتها الماسية:

- الكلب ابن الكلاب، رسامٌ موهوبٌ أنا، يقول لي طوال الوقت مباهياً ومتهماً إياي بانعدام المواهب رغم جمالي الظاهري. يخبرني:

- هذه مجرد قشرةٍ حبيبتي العبقرية هي الأهم.... تنام هنا... ويشير إلى رأسه وذراعه.

خرجت المرأة الغاضبة صافقةً الباب خلفها بقوة.

وقع ذلك في الفترة التي كانت الصحف تتحدث فيها عن العرس المذهل المرتقب الذي سيقيمه عمك عند اقترانه بالسيدة أزهار.

في الليلة الموعودة ذهبتُ إلى القصر المزدان بكلّ أنواع الزينة، فقد كنت ضمن قائمة المدعوين طبعاً. دخلت الحديقة الكبيرة المزدحمة بالناس، روائح الشواء تكاد تزكم الأنوف، كلّ أنواع اللحوم المشوية، أسياخ الشاورما الزكية الرائحة، الأسماك الممددة على الأواني النحاسية، أنواع المعجنات المثيرة للشهية، ومأكولات فاخرة وُضعت على صَوانٍ متسعة، انتشرت في أنحاء الحديقة، طاولات امتلأت سطوحها بكل ما يُمكنك تخيله من الأطعمة والمازات والفاكهة والمشروبات الروحية. أضواء ملوّنة تشعّ في زوايا مختلفة، جنة حقيقية، وصبايا جميلات يُسرفن بدعوة الضيوف طوال الوقت لتناول المأكولات والاستزادة منها، والسيد سلطان لا يتوقف عن احتساء كأسه والكلام والابتسام، سألني على سبيل الدعابة:

- أتعرف كم من النقود أنفقتُ على هذا العرس السعيد؟

- بالطبع لا.

قال ضاحكاً:

- خمس مئة ألف دولار.

- نصف مليون دولار، يا ربّ السماوات!

- لكنها ستعود إليّ شيكات ممهورة، قسم منها قد استقرّ في رصيدي المصرفي على سبيل التهنئة، والآخر سيلحق به قريباً جداً.

كانت السيدة أزهار في جوارنا تصغي، وقد بدت على درجة كبيرة من العصبية والغليان، دائمة الالتفات وثرثارة، لا تكاد تكفّ عن الكلام الخافت، وحينما يستفهمها زوجها المستقبليّ عمّا تقول تسارع إلى الردّ:

- لا شيء، أقرأ تعاويذي أدفع بها الحسد عن نفسي.

صدحت الموسيقى معلنةً وصول قالب الحلوى، هائل الحجم مترف الزينة، نترت العروس طرحتها البيضاء المرصّعة بالورود الماسية الصغيرة، هكذا خيّل إلي لكثرة التماعها، وارتقت المنصة الصغيرة المعدّة لها وللعريس، لم يكونا قد جلسا عليها بعد لأنهما حرصا على الاختلاط بالمدعوين المحتشدين، فتنبه الجميع، أصغوا للعروس السعيدة بزواجها الميمون.

علا صوتها مرتجفاً بدايةً، ثمّ صار أكثر جرأة وثباتاً قالت:

- زوجي المزعوم، سلطان بيك هذا يباهي بإنفاقه الهائل للأموال على هذا العرس، طبعاً فهو رجل أعمال ناجح ينفق من أموال الآخرين، وإلّا هل يهون على المرء أن ينفق أمواله بهذه

الطريقة وكأنه يغسل يديه بالماء والصابون؟ المال المسروق فقط هو ما يمكن صرفه بهذه الطريقة، ومعروف أن أسخى الناس هم اللصوص وقطّاع الطرق، والقوّادون والنصّابون، لماذا؟ لأنهم ينفقون أموال غيرهم، وكأن أحداً لم يتزوج في العالم قبلهم، ولا أحد ضاجع امرأة سواهم، يعتقدون أنهم وحدهم يعرفون لذة الزواج، هل سيفعلون شيئاً مختلفاً عن أفعال الآخرين؟ مؤكد لا، فهم يقيمون حفلات الزفاف المترفة هذه لغرض آخر. حفلاتهم يا سادة أشبه بمكاتب موقتة تعقد فيها الصفقات التي ستعوّض عليهم تكاليف العرس، وعرس آخر إضافي سواه. حتى عندما يموت هؤلاء فإنّ المعزين بهم يتبادلون أحاديث التجارة والصفقات، يا لهم من أوغاد!

وهذا الرجل المتبجح أمامكم اليوم بماله الذي أنفقه على حفلة الزفاف، قضى فترة خطبتنا يتبجح كذلك بعبقريته، فادعى بكل وقاحة أنه رسام مبدع، بما أنه يعرف مقدار عشقي لهذا الفن، وأنه العبقري الأوحد الذي منّ علينا الدّهر به، يرسم اللوحة في ساعات أو في نصف نهار، مستخفّاً بذكائي وبذكائكم، كذّاب أفّاق، تعرفون من هو صاحب الموهبة الحقيقية ههنا، العبقري الحقيقي بيننا اليوم هو السيد مُلهَم جسّار، فهو من رسم كلّ لوحاتكم ووجوهكم ولحظاتكم الحميمة، وهو، وهو وهو....

واستمرت تحكي وتعدّد وأنا أستحمّ داخل ثيابي، كان العرق قد بلّلني تماماً، أحسست أني أغرق في برميل من المياه اللزجة، وفجأة اقتربت تلك المرأة المذهلة مني، وقبّلت شفتيّ بعنف قبلة حقيقية ترنحت على أثرها، أمسكتني من يديّ، رمت طرحتها أرضاً، أرسلت باقة الزهور باستعراضية واضحة في الهواء، فسارعت بعض الفتيات لالتقاطها غير عابئات بكل الكلام الذي كان يقال، شدّتني المرأة المهتاجة من يدي، وقالت بانفعال:

- تعال معي.

كان عمّك سلطان لا يزال واقفاً ينظر بذهول إلينا، بدا وكأنه شخصٌ آخر جامد لا أعرفه، وعندما اقتربنا من البوابة الخارجية الكبيرة كان لا يزال على وقفته الذاهلة يحدّق إلى اللامكان، نظرت إليه برهة ثم عدوتُ معها.

ظننت لوهلة أنّ المرأة الجميلة قد أُغرمت بي، وأنّ رسوماتي قد سحرتها وأفقدتها عقلها، حين اقتربت منها أمام باب منزلها لأقبلها، وقد تجرأت على لفّ ذراعي حول خصرها واحتضانها بقوة، صفعتني على خدي بصلابة فاجأتني قائلة باستنكار:

- صحيح أنك بلا فهم، يظهر أنك نسيت نفسك، وفاتك أنك كذاب أكثر منه، تعاميتَ عن غشّه طوال ذاك الوقت.

عبرتِ الباب الخشبي الكبير لمنزلها، وصفقته خلفها بقوة، وعدت أنا أجرجر خيبتي إلى منزلي.

بعد ثلاثة أشهر مرت على حادثة الزفاف الشهيرة، التي تحدثت عنها الصحف مدة أسبوع كامل متهمة العروس بالجنون، وبالانهيار العصبي لأنها لم تصدّق الحظ الخارق الذي لحق بها عندما عرض سلطان بك الزواج عليها، نُشر خبرٌ، مرة واحدة فقط بطريقة مقتضبة، وذلك في صحيفة محلية معارضة، مفاده «أنّ طائرة خاصة صغيرة الحجم والسعة، محدودة المقاعد قد انفجرت في الجوّ بعد نصف ساعة من إقلاعها، وأنها سقطت في مياه المحيط المثلجة وما استطاع أحدٌ العثور على شيء من حطامها، وذكر في الخبر أن الطائرة كانت تضم شخصين إضافة الى طاقمها المكون من ثلاثة أشخاص... والراكبان هما المليونير الفلاني والسيدة الجميلة أزهار، وقد كانا متوجهين في جولة آسيوية لقضاء إجازة شهر العسل بعد أن غادرا حفلة زفافهما المتواضعة التي اقتصرت على قطع قالب من الحلوى، والتقاط صور تذكارية للعروسين السعيدين».

تريدينَ لوحةً لعمّك سلطان بيك زعتر، سأعطيك واحدةً له أو لشبيهه، انظري إليها سيدتي، تلك الموضوعة على الرفّ الأعلى من مرسمي، لاحظي أني لا أضع لوحة أخرى في جوارها، حتى

والرجل ملتصق بقماشة باتت بالية لا أحد يحب الجلوس في جواره، ولا مشاركته في مقامه، الآن فقط تذكرت أن هذه اللوحة هي العائدة إليه.

لم تقلّبينَ شفتيكِ على هذه الشاكلة؟ ماذا؟ لم يعجبك رسمي له؟ تقولين إن اللوحة لا تشبهه وليس فيها شيء من ملامحه؟ ومن قال لك سيدتي إنّ الرجل كان يقبل أن يجلس أمامي لأرسمه، كان يطلب مني رسمه من الذاكرة، ثمّ ينظر إلى الخطوط ويقول لي:

- نظرتي يا مُلهم أعمقُ من هذه، وأنفي أجمل وأكثر استقامةً من هذا، وكبريائي لا تبدو واضحة في الصورة، وفيها ملامح تشبه وجوهَ بعض من أعرفهم، وأنا لا أحد يشبهني في الدنيا يا ملهم، لا أحد، هل تفهم؟.

ألزمني الرجل دائماً رسم شخصٍ لم أره في حياتي. تقولين لي الآن إنّه خرّف في أواخر حياته، هو يا سيدتي رجلٌ خَرِفٌ منذ زمن طويل، مجنون بشكل رسمي، ويدفع كلّ من يعمل معه للجنون والعويل. ماذا، لا تريدين هذه اللوحة؟ لِمَ؟ صدّقيني إني أريد أن أرتاح من وجهه الغريب هذا، ومن كلّ ما يذكرني به. تقولين إني غير لائق؟ اعتذري أرجوك، وإلّا رأيت مني ما لا تحبين، متعالية أنتِ كعمّك سلطان، منذ دخلت مرسمي لم أحبّك، ذكرتني بذاك الرجل المتعالي، يستحق المصير الذي انتهى إليه، أتمنى ألّا تجديه

أبداً، تفو عليه وعلى كلّ من يذكّرني به، فلتتعاون كلّ ذئاب الأرض على افتراسه وتقطيعه، إيّاك أن تسأليني عنه مرة أخرى، لم أسامحه بعد لأنه حرمني من نسبة عادلة عن كلّ رسوماتي، الأفضل أن تهربي من أمامي سيدتي، وإلّا هشّمت هذه اللوحة اللعينة على رأسك، أسرعي... يللا اخرجي من هنا، وإياكِ أن تعودي.

(٨)

فضّلت أن أتواصلَ معك بدايةً عبر الفيس بوك، أردتُ أن تري صُوري فتتذكريني وتصدقي بالتالي ما سأقول.

لم تجدي وجهي غريباً، بدا مألوفاً بالنسبة إليك؟ بالطبع، هذه مسألة بديهيّة فأنتِ قد رأيتني غير مرة وأنت صغيرة، أذكرك تماماً وأنت في السادسة من عمرك، تلبسين فستاناً زهرياً جميلاً، وتضعين ربطة الشعر البيضاء في شعرك الكستنائي، كنت أنا يومذاك حاملاً في شهري السادس، أراد سلطان أن أراكِ عسى أن يكون مولوده جميلاً مثلك، أنت زهية، حبيبة قلب سلطان، لطالما أحبك حبيبي سلطان، وحملك بين ذراعيه وقبلك ورفعك عالياً في الهواء، وأنت تطلقين ضحكاتك الرشيقة وكأنها أغاني الحياة تتعالى بين يديه.

لقد أحبك سلطان والشهادة لله، وعاملكِ كابنة حقيقية له وأكثر، أتعلمين أنه لم يكن يطلب مني شراء الهدايا لإنسان سواك؟ لا تعرفين هذا الأمر، أكيد أنّى لك أن تعرفي.

تقولين إنك وجدت المنزل بسهولة؟ نعم هو...رائع، يشبه سيده.

على كلّ يسهل الوصول إلى هذا المنزل، سلطان هو من اختاره لي، أقمت فيه منذ تزوجنا، ولم أغادره بعد ذاك قطّ.

لا تؤاخذيني فضّلت أن تأتي لزيارتي على أن نلتقي في أي مكان آخر، فقد يأتي عمك في أية لحظة، يجب أن أكون في انتظاره، وساقي متورمة كما ترين، الذكرى الوحيدة الأليمة من سلطان روحي، كلّ الذكريات الأخرى سعيدة إلّا هذه، أحاول أن أنبش له أحداثاً آلمني بها فلا أجد سواها.

رغم كلّ ما كان يُقالُ لي عنه، ما كنت أصدّق، اعتبرته دائماً أروعَ الرجال، ولاأزال أجده كذلك، حادثة قدمي هذه كانت غلطة ليس إلّا، مجرد غفلة، بعد سنوات سامحته عليها، وبقيَ قلبي يحنّ إلى الزمن الذي جمعني يوماً بعينيه.

كلّ الأخبار التي وصلتك عنه ملفقة، منزعجة أنت كما أخبرتني من الحقائق التي تتكشف تباعاً لك عنه، يشوّهون صورته أمام عينيك الجميلتين ليس إلّا، هل تفقهين ذلك؟

لم تساعدك أجهزة الدولة على العثور عليه، يا للزمن المهترئ الرديء! هو الرجل الذي كان يومَ عرفته يصنع الدولة وأجهزتها، يدخل اليوم في خانة النسيان. لا أحدّ يجده لك ولا أحد يسأل عنه

أو يشعر بغيابه. تقولين إنّ زوجته الصبية أقامت حفلة صاخبة في قصره البارحة، وإنها طردتك حين أعلنتِ استنكارك حيال سلوكها؟ ماذا؟ قالت لك بصفاقة إنّ عمك نفسه لم يستطع الاعتراض على شيء يوماً، وصرخت بك:

– تريدين الآن محاسبتي، يلّلا اخرجي من قصري، ولا تريني وجهك بعد الآن أبداً، أنا لا أعرفك، ولا أعرف أحداً يمت بصلةٍ إليك، كيف تجرؤين المرة تلو الأخرى على دخول قصري، وعلى استجواب خادمتي؟

مُنتهى الوقاحة، وأقصى الخذلان. على كل سلطان يستحقّ رغم أني أحبه، أنا أعرف أنه يستحق.

أمي طردتني من منزلها عندما بكيت أمامها، وأنا أحمل ابنتي على صدري، قالت لي ببساطة:

– أنتِ امرأة بلا كرامة، تحبينه بعد كلّ ما فعل بكِ، اخرجي من بيتي ولا تعودي إليه أبداً.

تعرفين يا زهية، واسمحي لي بمناداتك باسمك دونما ألقاب، فأنت كابنتي أو أنت ربما بعمر ابني عزيز، تعرفين أنك لو كنت في عمري الآن لأدركت أنّ جنّةَ كلّ إنسان ليست سوى سَراب رغبةٍ خاصةٍ به، وأن المباهج التي يشعر بها في تلك الجنة هي بالنسبة إليه مباهج حقيقية لا يرغب في أكثر منها.

عمّك سلطان كان بهجتي الحقيقية في الحياة. لم أرغب في الدنيا في رجلٍ أكثر منه، ولا أجمل منه ولا أذكى منه، رغبت فيه، هو فقط، وحين التقيته أو حين التقاني، ونظر إلى عينيّ نظرته المتسلطة تلك امتلك روحي، وبات سيد أحلامي. لكنه لم يتركني أغرق فيه، فهو رجل لا يتقن الحلم، هو يصنع الحلم لسواه، يضعك فيه ويفلت لك الزمام، وقد وضعني داخل حلمي زمناً، ثمّ قطع كل الحبال التي علقني بها ها ها ها. صنع لي جنتي ثم طردني منها ببساطة، انتقم لجده آدم،عليه السلام، مني كأنه أوصاهُ أن يفعل ما فعل.

هل تعرفين أني كنت متزوجة قبل أن ألتقيه، وأني أنجبت ولدي الرائع عزيز، ربي يحميه هو وأسرته، وأني لم أكن أحبّ زوجي يومئذ، كان مجرد زوجٍ ليس إلّا، لا تفهمين معنى هذا الكلام، معنى أن يكون الرجل مجرّد زوج، شيء كالماء الذي ينزلق على الرخام، لا يعلق منه أثر، لا يستطيع أن يهزّ شعرة من شعر رأسك، ولا أن يجعل قلبك يخفق ويتلوّى وهو يتأملك بعينيه، ولا يتمكن من جعلك تحلقين إذا ما لامستك أنامله الدافئة...

تحبين زوجك أنت يا زهية؟ محظوظة صدقيني، كما كنت أنا محظوظة حين أحببت سلطاني، فهذه القلوب في صدورنا وجدت لتخفق يا عزيزتي وإلا لا معنى لوجودها، فيما بعد كل ما عرفته كان كفيلاً بجعلي أكرهه، لكني لم أفعل، من يحبّ لا يكره يا زهية،

صدف أني كنت أنتظره كلّ العمر الذي عشته قبله، لذلك حين أتى فجّر كل ينابيع الحب في أعماقي حياله، وتركها تتدفق حتى بعد غيابه، بقيت تتدفّق حتى جفّفتني تماماً، ليبقى هو محافظاً على كامل حياده، وكامل الثبات.

بحث ونقّب عن امرأة طيبة، جميلة وسبقَ لها الإنجاب، ووجدني، بينما ظننت أنّ الصدفة وحدها جمعتني به لتنتشل روحي من سأمها، كان قد تزوّج وطلق خمساً من النساء قبلي ولم ينجب، ولم يصدّق أنّه لا يستطيع تحقيق رجولته الكاملة، كان يقول لي دائماً:

- أنا صانع الرجال في هذا المكان وفي كلّ مكان عنَّ لي أن أقيمَ فيه، لن أعجز عن إنجاب طفلٍ يا صافيناز، يجب أن تؤمني بذلك أيتها المرأة الطيبة.

وأنا آمنت، وحملت، وزغردت السعادة في قلبي وتدفّقتْ أغانيَ وألحاناً شجية، وبعد أن كنت زوجته السّرية التي لم يستطع يوماً أن يتباهى بها - لأن زوجته المعلنة كانت متنفذة وذات حظوة كبيرة لديه ولدى أبيها الوزير - فلا يستطيع إغضابها وإغضابه، أقول إني بعد حملي صار يُسمح لي بالتدلل وبالتأوه، وبالإسراف وبالشراء، وبالإعلان عن الرغبات والأحلام وبكلّ الترهات التي تولد في أرحام النساء وفي قلوبهنّ.

لم يكن عمّك يا زهية على تلك الشاكلة من القسوة التي أخبروك بها، في تلك الفترة كان رجلاً محبباً، والكلّ يعترف بذلك وبسطوته، لكن عندما سلمته القابلة القانونية الطفلة الصغيرة إلى درجة مرعبة قائلة بحذر:

- ابنة، إنّها فتاة يا سيدي، ما شاء الله النور، لاحظ النور الذي ينبعث من جبينها.

أصابه الصمت حينئذ، تسرّب إليه من غرفة الولادات، من غرف الممرضات، من مَسام جسدي الخائف من غضب عينيه، بعدما كان قد تحمّل كلّ هياجي وصراخي ومباهاتي بحملي الذي عجزت عنه سائر النساء من زوجاته، وبعدما سمع من فمي كلّ الكلمات البذيئة التي لا يُسمح للسيدات باستعمالها إلا وقت مخاضها، بعد كل ذلك ساد صمتٌ حمل انهزامه، ولطالما كان الصمت صوت الهزيمة عند الرجال يا زهية، هل تدركين هذا الأمر؟

احترت عندما سلّموني تلك الطفلة الصغيرة جداً ماذا سأفعل بها، صرخ سلطان:

- لا بدّ أن هناك خطأ ما قد حلَّ. عمليات تبديل الأطفال شائعة جدّاً في المستشفيات.

زأر وهو ينظر إلى الطفلة التي بين يديّ، فوجَمَ الجميع.

- أنا قلت إنّ طفلي سيكون بأمان في هذا المستشفى، كيف

يمكن لأمر كهذا أن يحدثَ؟ على أحدهم أن يخبرني بدقة بما جرى هناك، هناك داخل تلك الغرفة اللعينة المسمّاة غرفة الولادة.

هرول الجميع، نظرت إلى الطفلة مجدداً، انتعش أملي، قلت هو رجل، وهو أدرى بما يقول، نَما الأمل في جوفي وربما عرّشَ، نحن نستمرّ يا زهية لأنّ بداخلنا الأمل، هذه القوة التي تدفعنا للنماء، للارتقاء مثل البذار الذي ينبت في التراب، يخرج من الأرض ليتبرعم ويزهر ويعطي الثمار، يثير فينا السعادة مرآهُ، لكنه قد يذبل فجأةً... ويموت.

وقف مدير المستشفى أمام عمّك، كان وجهه غائماً وصارماً ولا يحتمل النقاش، لقد كان حاضراً عملية الولادة لخصوصيتها، فهو يعرف من هو الوالد، ولا مجال للخطأ. لقد رأى هذه المولودة الفتاة تخرج من بطني أنا بالذات، من حوضي المتسع كما في سائر الـولادات، وكان له شرف قطع حبل سرّتها بمقصّه - الذي لم يعد يستخدمه منذ مدة طويلة لكنه طلب تعقيمه وإعداده للمناسبة السعيدة - ولقد وقف ليشرف على عملية استحمامها أي المولودة بنفسه، ممنوع أن يقع أيّ خطأ مهما يكن نوعه، لذلك هو يقدّم تهنئته القلبيّة الخالصة.

- ونحمد الله على سلامة السيدة الوالدة.

أنت لا تعرفين يا زهية كمّ الاستعدادات التي كنّا قد قمنا بها،

وكيف زيّن لي سلطان هذا المنزل البسيط الذي ترينه، يومئذ كان جميلاً وجديداً يتوهّج، حوّله إلى ما يشبه العيد الحقيقي بدا كشجرة ميلاد تستقبل العيد، هدايا وزينة وإضاءة ومشروبات فاخرة، وعلب حلوى وتذكارات لشخصيات الدولة النافذة التي ستأتي وتبارك لنا بالمولود الذكر، لكلّ وزير هديته الخاصة، كل نائب وكلّ مسؤول رفيع القدر، وربما أقولُ ربما أتى الرئيس بنفسه بدل أن يرسل المبعوث...

- اطمئني وافرحي كلهم سيأتون ويباركون ولادتك. إياك أن تخلطي علب الهدايا، على كلّ سيكون هناك من يساعدك، لا تحملي همّاً، أنت ستهتمين بابننا فقط.

شعرتُ من نظراته في ذاك النهار، وأنا مُنهكة على سرير ولادتي، وتلك الطفلة العجيبة بين يديّ أنه لا يريدني أن أبقى معه بعد، لم أجرؤ على إخراج ثديي لإرضاع طفلتي التي كانت تَصرّ كفأر صغير وتتلوى فيميل وجهها العجائبي إلى الزرقة الدكناء، لم يقل شيئاً، نظر إلى وجهها طويلاً، ثمّ ثبت نظره على الجدار الأبيض، أرادني أن أرحل وحسب.

ظللتُ أحدّق إلى عينيه، أنظر إلى وجهه الذي تقلصت عضلاته، أحسست بدرجة غضبه مني، شعرت بإذلاله، رأيت فجأة الكثير من الضعف والألم يطلّان من داخله، حاول أن يبتسم ببراءة

من يريد مواساتي، أن يزيح ألمه جانباً، أن يحيد ببصره عن بياض الجدار، رأيتُ فجأة الكثير من الإنسانية في أعماق عينيه والكثير من الوجع، لم أحتمل، أزحتُ نظري عنه، ورحت أحملق أنا الأخرى في الجدار، لِذنا به كلانا.

فكّرت في التعذيب، في الألم الجسدي والنفسي المجاني الذي كان يُعرِّضُ هو له أحياناً بعض الرجال، يفرضُ عليهم به ما يتوجب عمله كما كان يخبرني بصَلَف وتباهٍ، وإذا لم يذعنوا ساهم في إصدار قرارات الإعدام، مئةً وعشرين قراراً من قرارات الإعدام على مدى سنتين. كيف يمكن أن تكون هناك أشياء كهذه؟ أن تكون هناك نظرات معينة تصرخ لك من الأعماق الإنسانية جاعلةً إيّاك تشعرين بشفقة رهيبة يمكن أن تبكيك سنوات.

اقتربَ مني، ألصقَ شفتيه اللتين أعشقهما بأذني، وقال بصوت سمعه قلبي قبل عقلي:

– لن أتقبل لحظةً الفكرة السوداء أنّ لي ابنةً غريبة على هذه الشاكلة، ليس أنا من يفعل ذلك، أنت طالق صافيناز، وعليك أن تفكري جدياً في إيجاد رجل تسجلين هذه الطفلة الغريبة – ابنتك – على اسمه، أو سجليها باسم مجهول ما، وإياك، إيّاك أن تفتحي فمك بكلّ الذي كان.

كلّ شيء صار بارداً، رطباً، منبسطاً شاحباً رمادياً مسكوناً بالضباب.

لم ينظر إلى عينيّ مباشرةً، تمنيت لو فعلَ، انسحب بهدوء من المكان. وضعتُ الفتاة جانباً، وكشفت الغطاء عن ساقيّ، دليتهما وانزلقت عن السرير، سرتُ خلفه خطوتين، أردت استيقافه، سرت خطوات، تعثرت، انطوت قدمي تحتي فلم أعرف كيف تهاويتُ ولا بما اصطدمت، أذكر فقط نظرته الشبيهة بنظرة الصقر، رماني بها وغادر الغرفة.

بقيت على الأرض غارقةً في بركة ساخنة من الدماء، حزني باذخ، جسدي يرتج وعقلي أشلاء.

تسألين نفسك ما شأنك بكل هذا الكلام؟ لا شأن لك، أردت فقط أن أخبرك أني رأيت عمك منذ ثلاثة أيام، وهذا سبب تواصلي معك عبر موقعك الإلكتروني، حبيبي عزيز هو من دربني على استخدامه، أكسر عزلتي بذلك، وأسلّي نفسي خلال فترة غيابه، لا لا لم يكن الأمر مناماً، كان الرجل يحوم حول منزله، رجل سبعيني يلبس البيجاما الزرقاء التي ذكرتها في إعلانك، شائب الشعر لكنه لايزال منتصب القامة شامخ الجبين، كان بإمكاني أن ألمح ذلك عبر الزجاج، حامَ طويلاً حول البيت، بدا وكأنه يتفقد كل النوافذ عساه أن يلمحني، أو ربما يلمح ابنته التي لم تنل إعجابه عند

ولادتها، ابنته غير المطابقة للمواصفات التي أراد، ها ها ها، خفت من الخروج إليه، بداية خفت، لكن حين قررت الخروج بعد أن طال وقوفه منعني ولدي عزيز ربي يحميه هو وأسرته، رفض وخاف علي. قلت له يبدو وحيداً جداً، لكنه لم يذعن.

غافلته ثم خرجت، تدحرجت على الدّرج الخارجي ككرة كبيرة، لاتزال ساقي تؤلمني حتى الآن، هل تلاحظين الورم الذي تسببت به تلك الوقعة؟

هرب هو بمجرد أن تدحرجت، خذلني مجدداً كما فعل وأنا مرتمية وسط بركة دمائي الساخنة يوم ولادتي ابنتي، وغادر المكان، وفي المرتين استيقظت ولم أجده، كما لم أجد ابنته بعد يقظتي من غيبوبتي الثانية التي طالت مدة يومين، ماتت الصغيرة، هالها ذهول أبيها وأمها من وجودها، فقررتِ العودة إلى عالم الغيب.

ستجدينه يا زهية، واصلي بحثك حبيبتي، وعندما ترينه أخبريه أني سامحته، ما عدت غاضبة منه، أؤمن أن الله عاقبني لهجري زوجي الطيب والتحاقي به، فذاك الرجل كان طيباً لكنه غبيّ، رزقني ربي تلك الابنة عقاباً لي، فالله يحبّ الطيبين يا زهية، وأنا لم أكن طيبة إذ تركته، وعمّك لم يعرف الطيبة يوماً ولا سلكتْ دربها إليه. كان يقول دائماً:

- حين تكونين طيبة سيدوسك الآخرون كحشرة.

هل تصدقين أنتِ هذا الكلام؟ إلى أين تريدين الذهاب الآن؟ ابقي في جواري قليلاً. ماذا؟ سيأتي عزيزٌ بعد قليل؟ من أخبرك بذلك؟ عزيز حبيبتي في أميركا، يقيم هناك منذ عشرين سنة، يعاقبني لأني هجرت أباه. أنا قلت لك؟ أخبرتك أنه كان هنا منذ يومين؟ مسكينة أنت والله مازلت صغيرة في السن حتى تصابي بفقدان الذاكرة ها ها ها قلت لنفسي أتسلى وإيّاك، فإذا بي أجدك مجنونة ها ها ها مسكنية والله، انتبهي وأنت تخرجين من منزل سلطان، السلم درجاته عالية، إيّاك أن تقعي وتكسري ساقيك الاثنتين كما كسرَ ذاك الرجل قلبي، وساقي، وكلَّ ما في الحياة.

(٩)

الآن فقط شرّفتني بالزيارة...

أَوْلَى الناس أنا بها منكِ لو تدركين...

مضى عليك شهران تبحثين ولم تجدي. طبيعي إذا لم تجدي سلطان زعتر عندي، فلن تجديه في أي مكان آخر في الدنيا، يكون قد مات، وذهب إلى الجحيم التي تُعَدُّ له بإتقانٍ منذ سنوات.

لا تسمحين لي بهذا الكلام، ومن أنت حتى تسمحي أو لا تسمحي؟ أنا كريستين حبيبتي، لا تعرفين من أكون وما محلي من الإعراب؟ أنا مِرآةُ سلطان، بعضُ دماغه وخططه، بعضُ نبضه، نصف ماضيه وكلّ حاضره... يحدّثونك دائماً عن حكومة الظل،أليس كذلك؟ أنا امرأة الظلّ الخاصة به ها ها ها، ومن لم يخبرك بهذا الأمر فقد خدعك.

تستفهمين ماذا أعمل؟ سكرتيرته حبيبتي، مديرة منزله، مدبرة نسائه، المعتنية بجسدهِ، مدبرة مكتبه وحساباته المصرفية، يِه كم سأعدّ لك من وجوه التدبير التي أتقنها، ألم يخبرك أحدٌ عني بعد؟

أها، كثرٌ ذكروني أمامكِ، لكنك لم تعرفي كيف تصلين إليّ، والآن قد وصلت، الدنيا صغيرة مهما اتسعت حبيبتي، على كل لا بد من وصولك، فكل دروب سلطان تنتهي إليَّ بعد أن كان انطلاقها مني.

أتابعك أنا منذ بدأتِ بنشر الإخطارات والبيانات عبر الجرائد، ثمّ عبر الفيس بوك وتويتر، لكني لم أرد عليك، لم أتصل، أنا لا أتصل بأحد، حتى سلطان لم أتصل به يوماً، هو من كان يفعل دائماً عندما يحتاج إليّ، ودائماً كان شديد الحاجة إليّ، فأنا الرقم الرابح بالنسبة إليه، «الكارت الجوكر»، متى احتاج إليّ لبّيت، ولمعلوماتك أنا أوّل واحدة رفضت زواجه من هذه المرأة اللعوب المدعوة تانيا، تلك التي قلتِ عنها إنها الأخيرة، أنذرته يومئذ:

- سلطان كلّ النساء في كفة، وهذه في الكفة الأخرى، ستقضي عليك صدقني، إنها جيل آخر غير الأجيال التي كنت تتلاعب بها، هي ستتلاعب بك، وتركلك بعدها بقدمها ككرة القدم التي تعشقها، ضحك ساعتئذ حتى بانَ آخر ضرس في فمه القديم، وقال لي:

- يبدو أنك مازلت غشيمة حتى الآن رغم كلّ ما علّمتك إيّاه يا كريستين، لا أحد يتلاعب بسلطان زعتر، لا هي ولا سواها.

وها هي قد فعلت، لم تخيب ظنوني بها، تعرفين ما هو أول عمل قامت به هذه الشّرمو...؟ طردتني من وظيفتي، أي وحياة

السيدة العذراء فعلتَها اللعينة، كلّ ما مرّ في حياة هذا الرجل من نساء لم يستطع مزاحمتي على موقعي في حياته، ولا أن ينتقص من حظوتي لديه، هذه... تمكنت سريعاً مني، لم أعرف حتى الآن كيف ساومته ليتخلّى عني؟

على كلّ هو لم يستطع التخلي عني بسهولة حبيبتي، دفع الثمن سخياً، لكن ولو، لاأزال غاضبة منه. رغم أنَّ كلّ هذه البناية الفخمة التي أقطن فيها مسجلة في الدوائر العقارية باسمي، وهذه الشقة الفسيحة التي نجلس فيها الآن، وكلّ الشقق الأخرى أعتاش منها وأؤجرها شققاً مفروشة فأتقاضى مبالغ مجزية، توازي راتبي الذي كنت أتقاضاه من سلطان، ومع ذلك لم يسامحه قلبي في أعماقه.

تسألين منذ متى أعرفه؟ ياه لم أعد أذكر بالتحديد، لكني عرفته منذ ترك زوجته الأولى المسمّاة حسيبة. كان يحنّ اليها بجنون في الفترة الأولى التي تركها فيها، يبكي على صدري قبل أن يضاجعني، ثم يفعل ذلك بسرعة فائقة، وبعد ذلك يقذف بغطاء السرير فوق وجهي قائلاً:

- الله يلعنك، لم تستطيعي أن تنسيني إيّاها بعد.

استفزني كثيراً في الفترة الأولى من علاقتي به، ها ها ها، بعد ذلك تفوقت على كلّ نسائه وحياتك، فصار كلّما تزوج واحدة عاد كالشاطر إلى أحضاني، شديد السأم كان، المرأة عنده مجرد محطة،

اتفاقية باهظة الثمن خيالية الأرباح، قصر يثير إعجابه، وزارة عالقة، صفقة عصية، أما الشبق فعندي وحدي ولي أنا وحدي، لا ينازعني فيه أحد، وحدها تلك الملعونة أدركت سرّه فاجتذبته كدبّ قطبيّ من بين يدي.

المهم الآن، تسألين مجدداً عن آخر مرة رأيته فيها؟ منذ ثمانية أشهر، أي قبل مغادرته منزله بفترة، أو عشرة أشهر ربما، بدا آنذاك متعباً شاحب الوجه، مشهده لم يعجبني، قلت له:

- ستقضي عليك هذه المرأة.

- اخرسي كريستي، وأقفلي هذا الموضوع.

خرست.

مع سلطان عليك أن تتعلمي عدم الجدال وإلّا ستخسرين. وأنا لم أجادله يوماً، كل ما كان يطلبه مني كنت أنفذه وأكثر، ولذلك استمرت علاقتي به كلّ هذه المدة الطويلة، وأنا أفخر أني المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تعاشره مدة خمسة وثلاثين عاماً ربّما، أستحق اليوبيل الفضي أم الذهبي قولك؟ ها ها ها بعض نسائه لم يستطعن الاستمرار أكثر من سنة واحدة. نَسراً كان... يغطّ فترة ثم يعاود الطيران والعلاء، فقّاعة كبيرة يتوهّم من حوله أنها قريبة منه، يكاد يقبض عليها فإذا بها تنفجر وترميه بالرذاذ.

تعرفين يا زهية، حفظت اسمك لكثرة ما نشرت خبر البحث

عن عملك سلطان في الجرائد مذيلاً به، المعرفة قد تكون للإنسان هدية مرعبة، وأنت تصرين على الحصول على هذه الهدية، لم تسأمي بعد من كلّ ما سمعته عن ذاك الرجل من أخبار؟ تريدين معرفة كلّ شيء، تشبهينه، أقسم باسم الرب إنك تشبهينه أكثر من أي أحد عرفته قبل الآن.

جلسَ في المرة الأخيرة التي زارني فيها على هذه الكنبة عينها التي تقعدين عليها، تأملني طويلاً، ثمَّ قال بهدوء:

- سَمِنتِ.

- لأني أشتاق إليك، أعوّض عنك بألواح الشوكولا.

انفجر ضاحكاً.

انتبهت إلى أنه فقد بعضَ أسنانه، بدا في عينيه حزنٌ ما لم ألحظه سابقاً، وخيّل إليّ أنه كان قد بدأ مرحلة النسيان المتقطع، الألزهايمر يسمونها؟ قال كلاماً بدا لي تهيؤات لم أفهمها، لم ألحّ تركته يتحدث.

أخبرني أن خياطَهُ فائز الذي كان يمتلك محلاً فاخراً قبل الحرب في منطقة السوديكو ببيروت قد أتى لزيارته، أعلمه أنّ بذلته الرّمادية التي طلبها منه أخيراً قد تمت خياطتها منذ مدة، وأنه لم يأتِ ليستلمها بعد، ولم يرسل سائقه ليأخذها، وأنه اختار لها ربطة عنق زاهية اللون، زهرية، وفقاً للموضة السائدة تليق به وتجدّد شبابه.

كنت أعرف أنه توقف عن زيارة ذاك الخياط منذ سُرق محلّه خلال حربنا الأهلية الشهيرة، التي باتت الفاصلة في ذاكرتنا الجماعية، قبل الحرب وبعد الحرب، نؤرخ لأيامنا حبيبتي، وأنّه واظب على خياطة بذلاته الرسمية عنده فترة، تمثلاً بالسياسيين والاقتصاديين الكبار الذين كانوا يفعلون تدليلاً على تميّزهم، وعلى أصالتهم المزعومة.

بعد ذلك بات يشتري بذلاته جاهزة من إيطاليا، من فرنسا، من تركيا، من سويسرا، كلها نتاج أشهر المحالّ العالمية وحياتك، كنت أساعده على انتقائها. أخبرتك أني كنت أرافقه في كلّ رحلاته إلا القليل منها؟ كلّ رحلات الأعمال أكون فيها في جواره، رحلات الاستجمام يُقصيني عنها.

يقول لي:

- أتركيني هذه المرة.

أفهم... ولا ألحّ... يبحث عن مذاق جديد.

تفهمين الرجل إذا أحببته فقط.

بعد ذلك توالت على ذهنه الرؤى بلا انقطاع، كلّ رؤيا أغرب من سابقتها؛ أخبرني أنه التقى زوجته الأولى حسيبة في السوق، وأنّها لاتزال جميلة الوجه كطفلة، لكنها صارت عريضة المؤخرة،

وأنها آلمته فتصلبت أصابع يده اليمنى حين أطبق بقوة عليها يريد قرصها، لم يتمكن من فعل ذلك كما كان يفعله بسهولة سابقاً.

ضحكتْ عندئذ وقالت له:

- تستحق، هذا هو بعض عقابك على ما فعلته بي.

وحدّثني كذلك عن آخر رجل سعى لدى مَنْ بيده الأمر لاستصدار حكم الإعدام بحقه، قال إنه وجدَه تحت سريره، أيقظه صوت أنينه لحظة تنفيذ الحكم به، كانت الساعة قد بلغت الثانية عند منتصف الليل، استيقظ ولم يستطع بعدها أن ينام.

ثم راح يتحدّث بسرعة، بلهجة رسمية للغاية، وهو ينظر خلفي تماماً كأنه قد رأى أحدهم يقف وراء ظهري، راح يقول غير مرة:

- نعم يا صاحب المعالي.

- آسف يا صاحب المعالي.

- كما تريد معاليك.

وتارة أخرى انطلق يسبّه بطلاقة، لكن بغضب واضح متفوّهاً بأفظع الكلمات حتى إني رحت أرسم إشارة الصليب بشكل متوالٍ على صدري وعلى رأسي، إذ لم أسمع منه قبلاً مثل هذه الشتائم، خصوصاً أنها كانت تأتي مباشرة بعد عبارة يا صاحب المعالي، ثم عاد والتفت إلى الناحية المقابلة للكنبة التي كنت أجلس عليها، وراح يقول:

- سمو الأمير، سموك فعلت، سموك طلبت، سموك قلت، لينطلق بعد ذلك بعملية السباب بكلمات أشد فظاعة من السابقة استدعت زيادة جرعة الإيمان في داخلي، فتسارعت حركة يدي مجدداً راسمة علامة الصليب دونما توقف، بينما انهمكت بترتيل بعض الصلوات في سرّي طالبة له الغفران:

- أبتاه اغفر له فإنه لا يدري ماذا يقول، إنه أحمق تماماً هذه الليلة!

اضطررتُ بعدها لطرد الخادمة التي كانت واقفة في جوارنا، قرب المرآة الكبيرة تتفرّس في ملامحه، بعد أن سمعتُ الضحكات الخافتة التي تنفلتُ منها:

- حمارة، اذهبي إلى المطبخ ولا تريني وجهك أبداً.

لكنها انفجرت بالضحك كقنبلة صغيرة، وهي تغادر الصالون.

استعرتُ شتيمة من شتائمه ولاحقتها بها. لم تعبأ.

انقهرتُ، رغم كل شيء لا أحبُّ لأحد أن يسخر من هذا الرجل الكبير. بعض رواياتنا في الحياة تنتهي نهاية خيالية، سلطان هذا كان رواية حقيقية، أصابع سحرية تمسك بكثير من خيوط البلاد، ياما صنع أحلاماً لبشر، وياما بخّرها.

هل أخبرتك أنه كان صاحب اليد الطولى في انهيار البنك الأهم

في العاصمة خلال الثمانينيات، بنك وُصف وقتئذ بالامبراطورية التي لا تهتز، وسلطان هزّها. حين طرح الفكرة أمامي قلت بثقة:

- لكنّ المصرف لا يواجه مشكلة سيولة، ولا أية مشكلة أخرى.

قال لي بثقة أعلى:

- نخلقها حبيبتي، ليس بالضرورة أن يواجه هو، نحن نجعله يفعل. ثم أنشأ غرفة عمليات هاهاها كما يسمونها الآن، وأشرف شخصياً ليلاً ونهاراً على بثّ كلّ الإشاعات، وكلّ ما يثير الذعر بين المودعين، جعل ركبهم تهتزّ بالجملة، رقص جماعي وحياتك، وفي الوقت نفسه حرّض وزراء الحكومة على منع يد العون إليه لإنقاذ المصرف، كان قاسياً ومتعجرفاً في تماديه، وحين حصل ما أراد، أطبق على كل ما فيه.

- حرام صاحبه يكاد يصاب بنوبة قلبية، الناس مرعوبة مما يحدث.

- نفذي ما أقول لك كريستين. في الحرب لا مكان للعواطف، وحين تبدأ معركة لا بد أن ننتصر فيها. لم تحفظي قواعد العمل بعد.

أنسحب من أمامه، وأنا أخاطب ذاتي:

- لا شيء يردع هذا الرجل المتغطرس.

في ذلك المساء الذي زارني فيه...آخر زيارة دهمت ذلك

المخلوق الكارثة القاسية كما دهمت القياصرة والحكام وكل الأقوياء. أنظر إليه فلا أصدق أنه سلطان الذي كان يرجّ الأرض رجّاً تحت قدميه.

عندما تأملته آخر مرة وكلي إشفاق، غضب مني:

- إيّاك أن ترميني بنظرة كهذه مرة أخرى.

ابتسمت له، نهضت من مكاني بحيوية مفتعلة، ضغطت زر آلة التسجيل، علتْ من CD وضعته موسيقى ليلة حب لأم كلثوم، كان يعشق ذلك اللحن بالذات، رحت أتمايل بثوبي الحريري الشفاف أمام عينيه، كما كان يحبّ أن أفعل عندما يأتي لزيارتي، ابتسم لي برقة، حاول مداعبتي بنعومة لكنّ مزاجه كان مكدّراً.

بدّلت ملابسي، ووضعت معطفاً خفيفاً على كتفي، تأبطت ذراعه وخرجنا من باب الشقة، طلبت منه أن يتمشى معي:

- اشتقت إليك، قلت له.

لم يكن في الشارع أحد ما خلا بعض النسوة، مرّت سيارة مسرعة، وحلق طائر قريباً منا، هرةٌ جميلة العينين قفزت بسرعة، وانتقلت بعشوائية من الجهة المقابلة باتجاهنا، وقفتْ مرتبكة أمامنا تنظر إلينا بعينيها البريئتين الجميلتين ثم عدَت بسرعة، فكرتُ في عدد القططة التي تُدهس بسبب ارتباكها أحياناً على الطرقات، فكرتُ في كل البشر الذين دُهسوا بمجرد أن توقفوا عن مسارهم

وارتبكوا لحظات، راح سائقه يقود السيارة ببطء قبالتنا، بدا سلطان مرتاحاً قليلاً، قال ممازحاً:

- انظري: ساقا تلك المرأة أجمل من ساقيك.

- ها ها ها هذا هو سلطاني الذي أعرفه.

صفّقتُ بفرح.

ظللنا نتمشى حتى بلغنا منطقة الكورنيش البحري. تبدّتِ المياه رائعةً هادئة كمهد طفلٍ غارقٍ في نومه، وكان امتداد الأزرق شهياً كحبٍّ يافع، أحسستُ برغبة في ملاعبة الأمواج الناعسة بفتور، نظرُت إليه بابتسام أريد أن أنقل رغبتي، لكنه كان يطلق بصره إلى البعيد:

- من سيرفع عنا إحساسنا بمسؤوليتنا يا كريستي، ومن سيطرد عني لياليّ المؤرقة التي تبدو كلّ لحظة منها اقتراباً حقيقياً من بئر الظلام.

قلق الموت بات يزورني، وأنا أوقن بأن الفناء عاقبته، في البعيد هناك بشرٌ ينامون في فردوسهم يعتقدون أن ملذات حياتهم خالدة، وأنها تنتظرهم بعد الموت، أتعرفينَ يا صديقتي الغالية كائنات تستحقّ الحسد أكثر منهم؟ أين يبدأ الوهمُ في الحياة؟ وأين تبدأ الحقيقة؟ إنه أمر يصعب قوله، هل ما عشته قد عشته حقاً؟ ولم هذا الإحساس المخيفُ باختلاط البدايات بالنهايات؟

نعم، أنا أجيبك بنعم يا زهية عن سؤال طرحه عليّ عمك، ولم أجبه حينئذ بشيء، لم أشأ أن أفسدَ عليه لحظة صفائه تلك، لكني أدرك أن ذاك الرجل لم يترك فرصةً في الحياة إلّا ارتشفها حتى الثمالة، كلّ الفرص المتاحة، كلّ الأموال التي سنحت له إمكانية احتجازها في خزائنه اختزنها، كل الأرواح التي أبيحت له قام باستلالها، لم يترك شيئاً يعتب عليه.

كان في فترة ما قد تحوّل إلى ما يشبه الغول، يشارك في تعيينات الوزراء والنواب، يزكيهم لدى أصحاب القرار، يتقاضى منهم مبالغ طائلة، طائلة أكثر مما تتخيلين، يتاجر بالأسلحة، بالمخدرات بالنساء، بالأعراض... وبالأرض، اشترى آلاف الأمتار من الأراضي، تقاسم وشركات غربية أرباحها، شركات فرنسية، أميركية، سعودية، إيرانية، سورية وشيطانية... كلّ ما يخطر في بالك حبيبتي، عمك كان تاجراً من النخب الأول، أول ما تاجر به هو نفسه، وبعدها لم يتورع عن المتاجرة بأي شيء.

- أنا أتحوّل إلى إنسان آخر وببطء منذ سنوات يا كريستين، بدا الأمر بطيئاً إلى حدّ أنني لم أنتبه إلى نفسي إلّا عندما أصبحت على هذه الحالة من الهدوء.

هذه المرأة تُقصيني الآن عن كل شيء، تدير هي دفّة الأمور، كنت مغتاظاً، لكني أصبحت الآن محايداً، أكثر هدوءاً وتقبلاً، ربما

لهذا السبب يشعر جانبٌ مني بالسعادة الآن، ويحسّ بالإيمان. هل يمكن للإنسان أن يعرف ماذا يخبئ له المستقبل؟ ولو عرف هل يفعل كلّ ما كان قد فعله في الحياة؟ ما هي السعادة يا عزيزتي؟ هل يمكن لك أن تجيبي؟ سابقاً آمنت أن السعادة ستتوهج من خزائن أموالي، جلست على أطنان منها، وأنت أدرى مني بأرقامها، لكنها ما عادت الآن تعنيني، مجرد أرقام تدوس ذاكرتي وترهقها. كأن الغول الذي كان يسكنني قد انسحب من جوفي وقفز إلى جوفها. تلك المرأة لا تهدأ ولا تستكين ولا تتركني أقترب منها.

ما عاد بإمكاني القبض عليها، لذلك أفسحت لها في المكان، تعبت من خوض الحروب، أشتاق إلى صافيناز بجنون هذه الآونة، أفكر طوال الوقت أن أزورها، لا بدّ أن للحبّ مذاقاً طيباً لم أفقهه قبل الآن.

يبدو أن الله قد تركني وحيداً عقاباً لي، والشخص الذي يتركه الله شخص وحيد يا كريستي حتى لو ذهب كلّ يوم إلى المقهى، وتضاحكَ مع أصدقائه ولعب الورق، ومازح زملاءه في المطعم مقهقهاً...

- إذا وجدتَ الحبّ الحقيقي لن تكون وحيداً.

- أحببتها كريستي لكنها لم تحبّني، وصافيناز أحبتني لكني

لم أحبّها، لعبةُ الحياة ووجهٌ من وجوه الجحيم الأرضيّة... سوءُ التفاهم اللعين... هذا.

البارحة حلمتُ حلماً غريباً، خُيّل إلي أنه جميل في البداية، فقد كانت الدنيا تمطر مطراً خفيفاً أنعشني، وكنت أسير في شارع مظلم طويل، لكنني شعرتُ بنفسي رشيقاً: قدماي خفيفتان، أحسست كأني أطيرُ يا امرأة، مسرع، مسرع لا ألوي على شيء، لا أنظر إلّا إلى الأمام.

في آخر الشارع المعتم لمحت ضوءاً بدا خافتاً، لكنه... ضوءٌ وسط ذلك الظلام، رحت أسرّع خطوي، أذكر أني عدوت، رشاقتي على حالها لم تتغيّر، اقتربتُ من الضوء، سمعت صوتاً بدا لي مواءً، زقاء صوص ربما، اقتربت... هسهسة فأرة؟ اختلطت في رأسي الأصوات، ظللت أقترب، لكنّ إحساساً بالخوف داخلني، جسدي يتقدم وخوفي ينمو كبركان يستعدّ للانفجار، سرعان ما استحال خوفي ذعراً حقيقياً، وراح قلبي يخفق بشدة، رأيت ما يشبه غطاءً أبيض ملفوفاً بإحكام، اقتربت منه، وأنا أكاد أسمع وجيب قلبي، بدا لي وكأن فيه طفلاً، طفلاً صغيراً للغاية، يشابه فأرة أو... لا أدري، حدّقت إليه ملياً، تذكرت أني رأيت وجهاً يشبهه لكنني لم أستطع تمييزه، حاولت الاقتراب، أدقق في الملامح لأتبينها، أخرج الوليد ذراعين طويلتين من تحت القماط الأبيض، احترت أين كان

يخبئهما؟ قرّبهما من عنقي ثم أطبق عليه بشدة، كانت أصابعه قاسية كفولاذ، راح يشدّ الخناق على عنقي، حتى كاد يقتلني.

استيقظت مذهولاً فاقد الأنفاس، بصعوبة استعدت روحي من بين يديه، رحت أخبط بسرعة على ظهر زوجتي المدللة.

- تانيا... أريد كوباً من الماء.

انتفضت تانيا فجأة كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة منذ شهور، رمتني بالوسادة غاضبةً، رفعت وجهها والتفتت إليّ كأفعى توشك على إرسال سُمّها.

- أنا لا أصدق أنانيتكَ بالمرّة، بتّ فعلاً إنساناً لا يُطاق، كيف تجرؤ على إيقاظي هكذا لتطالبني بكوب ماء؟ أكيد أنك جُننت في هذا الليل الأسود الذي لا يريد الانتهاء...

فضّلت العودة إلى حلمي، لكني فشلت في استعادة حتى الأحلام.

اليوم زوجتي اللطيفة أصدرت أوامرها بنقلي إلى غرفة نومٍ بعيدة عن غرفتها، غرفة مخصصة للضيوف عادةً، أول من فكرتُ في زيارته أشكو له هو أنت، لكنّ صورة ذلك الوجه الصغير لم تكن قد فارقت خيالي بعد إلى أن تذكرت أني رأيته في أحضان صافيناز يوم أنجبتْ ما كان ينام في رحمها. هل يعقل أنه وجه ابنتي التي رفضتُ قدومها إلى حياتي في يوم من الأيام؟

هل يُعقل يا كريستين؟ مازالت تلك الطفلة تفكر فيّ وتحْزنُ مما فعلت بها وبأمها؟

منذ أيام يلحّ على رأسي مشهد بعض الفتيات اللواتي ظلمتهنّ...

قاطعتُه بسرعة، حاولتُ البحث عن موضوعات مشتركة يمكننا الحديث عنها بشكل مطمئن، كأي اثنين يستعيدان ماضياً جميلاً.

وجدتني أستعرض له بعض قسوته ليس إلّا: حدّثته عن أمه التي قاطعها، ورفض عودتها إلى حياته بعد أن سمعت بشهرته وثرائه، عن سَوقه الموتَ بالمجّان لكثير من البشر، عن الطحين المغشوش الذي شحنه بكميات هائلة ملأت أهراءات مرفئنا، وبعد ذلك اكتشف أننا بتنا نأكل منه المناقيش التي يحبها للغاية، ويقول عنها إنها رائعة حتى عرفنا مصدرها، حدثته عن الكنيسة التي كان يحبّ زيارتها معي ليكتشف فيما بعد أنه باع من دمّرها كلّ المتفجرات المهولة التي وزعت في أنحائها ودكّتها دكاً، عن زوجته العجوز التي تزوجها لينقذ نفسه مادياً، والتي أصابتها ذبحة قلبية أودت بحياتها بعد أن جعلني أتعرّى قبالتها، ويداه تداعبانني لإغاظتها.

كنت أتحدث، وأحاول الضحك فتخرج ضحكاتي كأنها اصوات السكاكين تمزّق أحشائي وأحشاءه.

مررنا بفتىً صغير يرشق الحجارة على السيارات العابرة قبالتنا قلت له:

- أنظر إليه كم يبدو سعيداً!

قال بتهكم:

- ذات يوم سيرمي هذا الفتى حجراً على الزجاج الأمامي لسيارة ما، وسيصطدم السائق ويموت، كل ذلك بسبب هذا الفتى الصغير، أوَتدركين ما أوحي إليه؟ الله موجود بلا أدنى شك يا كريستين، نعطي ونأخذ ونمضي حتى النهاية في طرقنا المتعرّجة السهلة أو المعقدة، وأخيراً قد نكتشف هذا الأمر، هل كنت آخذ في الحياة فقط، وما فكرت يوماً في العطاء؟

لم يخطر لي بتاتاً أنّ سلطان قد يكون مؤمناً ويخاف الآخرة، بدت لي تلك الالتفاتة بداية مرحلة إيمانه بالغيب، هل لايزال الرجل بكامل وعيه؟

- أنا إنسان محترم لكني بتّ عالقاً في هذا العالم البائس، العالم لن يجد السلام كريستين قبل أن تركع النساء على أقدام الرجال يطلبن الغفران... لقد توسّلت إليها من أجل تفاهم مسالم عذب على الحبّ الصّافي بيننا إلى الأبد، وأن نتخلّى عن كلّ المشاحنات التي تطحننا، وهي تدرك أني صادق هذه المرة، لكنّ

عقلها يعقد العزم على شيء آخر، إنها تتعبني ولا تريد أن تفهم كم أحبّها، هل نحن نفهم نساءَنا يا كريستين ونضع اللوم عليهن بينما كلّ الذنب ذنبنا؟

- أنتما جيلان ولكلّ منكما نزوعُه.

بدا لي معذَّباً بطريقة محزنة، كان الليل قد بدأ يهبط على الناحية بأسرها، لم أستطع نزع عينيّ عن المياه الملتمعة تحت ضوء القمر المشعّ، كانت تلك الناحية من بيروت الآن فتنة حقيقية، أدرت وجهي صوبه، ظهر وجهه مهيباً قوياً مثلما عرفته دائماً ينظر إلى الأمام بهدوء وجلال، ابتعد عني ودلف إلى السيارة. كان سائقه قد سبقه إلى فتح الباب.

- متى شُوهد نسرٌ يتخلّى لبقرة عن مملكة الفضاء؟

لا بدّ ستدفع تلك المرأة ثمن ألمِ هذا الرجل، حدّثت نفسي وهو يستوي على المقعد الخلفي في سيارته الفارهة، رماني بنظرة طويلة متمعّنة، قال لي:

- لا شيء حقيقياً وكلّ شيء مباح، تلك هي القاعدة التي آمنت بها كريستي دائماً، لكن يبدو أن هناك ما هو حقيقي في الحياة، الشرّ صديقتي، الشرّ هو حقيقتها الكبرى، ودائماً كلّ شيء مباح بالنسبة إليه حتى أنا... سلطان.

ألا تعتقدين بعدُ يا زهية أنّ سلطاناً عمّك قد مات!؟

(١٠)

منذ يومين بالضبط رأيت عمك سلطان باشا زعتر... كان يسير في الشارع أمامي، وهذا الحادث المفاجئ هو سبب لقائي إياك اليوم.

لن أقول شيئاً، ولن أذكر تفصيلاً واحداً ولو صغيراً، قبل أن تدفعي لي المبلغ الذي وعدتِ به...تدفعينه كاملاً أيتها السيدة الثرية.

أنتِ قلت مئة ألف دولار، طبعاً طبعاً لن أفتح فمي قبل أن تريني المال، وتعطيني أقلّه نصفه: عدّاً ونقداً، وبالعملة الأميركية، بالدولار تحديداً، أريدها جميعاً من فئة المئات،لا خمسينات ولا عشرات، وجديدة... أوراقها تلتمع،لا شيكات أرجوكِ، لا أحبها... وبعدها بعدها فقط سأتكلم، وأقول لك كلّ ما تريدين سماعه.

ماذا؟ تسألين عن شكلي، لا شأن لك بشكلي، لا تلتفتي إلى شعري المنكوش، ولا إلى ثيابي المتسخة، هذا أمرٌ يخصّني وحدي. هل تسخرين مني؟ لا يحقّ لك سيدتي أن تسخري مني،

أنا طالبة جامعية متعلمة أكثر منك، ومن عمّك سلطان الذي أضعته.

أنا، أنا حرّة أقف أو أجلس أو أتمشى لا شأنَ لك بي، إيّاكِ، إيّاكِ أن تكلميني كأنك محقق في النيابة العامة، أصلاً لم يجدوا معي شيئاً حين أوقفوني.

قلت لك إني رأيته، وعليك أنت أن تصدّقيني. تريدين أمراً يؤكد كلامي، طيب حقك، كان يرتدي بيجاما حريرية زرقاء.

تقولين الكلّ بات يعرف هذا الأمر، وإنك أنت من أعلن عنه كذا مرة في كل وسائل الإعلام. أعلم ولمعلوماتك هو كان منكوش الشعر مثلي، أقلّه تساويت أنا وعمّك في أمر ما نكايةً بك.

لا، لست أبكي، ويدي هذه ترتجف عادةً، وليس الأمر اضطراباً ولا كذباً ولا تعاطياً. احترمي نفسك ولا تتهميني بالتعاطي. ماذا؟ لا يعجبك شكلي تقولين إنّ الدوائر السوداء تلتفّ حول عينيّ، وإني مجرد شابة ضائعة كاذبة؟ لا، لست أبكي، ابتعدي عني، لا يحق لكِ الاقتراب مني، إمّا تدفعين الأموال حتى أتكلم، وإمّا لا أخبار عندي البتة، وهذا قرارٌ نهائي، وإلّا سأغادر فيلتك الجميلة هذه.

أتطلبين مني الانتظار؟ تقولين أنْ لا داعي للحنق عليك، فأنت كذلك مقهورة على عمك، وغاضبة من غياب كل أثر له. تكادين تيأسين من إيجاده. مثلك أنا والله، اليأس يأكل أحشائي.

غسّان قال لي ذلك، أخبرني أنك بحثت طويلاً، ولا أحد

أفادك، ها، من غسّان هذا؟ أنا قلت غسان؟ نعم أنا ذكرته لك، هو من يعطيني الأموال عادةً، لا لا يعطيني أموالاً، يعطيني ما هو أهمّ منها، يعطيني حقناً ولفافات صغيرة وحبوباً و... ما شأنك أنتِ بما يعطيني؟

المهم أني رأيت عمّك يسيرُ في الشارع أمامي ذاهلاً كذهولي، إهي إهي إهي، إيّاك الاقتراب مني، من قال لك إني أبكي، وإن هذه المياه المنسابة من عينيّ دموع، أعاني حساسية مفرطة أيتها السيدة المتأنقة.

أنا كنت في يوم ما طالبة متألقة أدرس في الجامعة الأهم بالبلاد، هل سبق لك أن درستِ في الـ AUB، لا لم تفعلي؟ أعرف تاريخك وتاريخ عمك سلطان، لم تكونوا أثرياء بالمرّة، هو من صنع ثروتكم خلال الحرب وبعدها، وقال لكم بعد ذلك خذوا، وقال لنا نحن كذلك خذوا.

غسّان يحدّثني مبهوراً عنه، يخبرني أنه كان أهمّ تاجر يستورد لنا بضاعتنا، ويسوّي مزاجنا الذي لا يريد أن يستقيم، هو مثاله الأعلى في الحياة دائماً يتطلع إليه، ويحكي لي عنه الكثير من الحكايا، مقهور لأنه لا يملك له صوراً، يجعلها على كل جدران غرفته العتيقة من الأرض إلى السقف، يقول عنه دائماً:

- The prince، البرنس كان يبيع، البرنس كان يشتري،

البرنس كان يفرض شروطه، البرنس كان صاحب مزاج رفيع، وهو الذي نظّم لنا هذه التجارة ووضع قوانينها وناموسها، يكاد يقدّسه .he's her hero

اللعنة على هذه المياه المنسابة من عينيّ، ارفعي يدك عني أرجوك، أقول لك أنا لا أبكي أبداً، لماذا تحسبينني أبكي؟

كلّ الأشياء التي كان يقولها غسان كانت خنجراً أطعن به نفسي، القذر اللعين يتباهى بما جعلني حطاماً، هو من أفسد عليّ دراستي وكلّ حياتي، وعمك الواقف خلفه في الظلال.

يريد المال كي ننتقل إلى حيّ جديد، بات الحي الخلفي الذي نسكن فيه قذراً ومكتظاً للغاية، كلّ أصناف البشر تتداعى إليه، حتى الفئران منزعجة من الزحمة الخانقة في أنحائه، بشر بشر بشر وأقدام تروح وتجيء، وقاذورات تتراكم في زوايا الشارع الذي كان نظيفاً وعريقاً، كلّ البلاد باتت قذرة كما أعلن غسّان، والده يحدّثه عن زمن كانت فيه نظيفة، ربما قبل الحرب، والدتي أخبرتني بذلك نقلاً عن أمّها عن زمن أكثر رقياً وتحضراً مرّ عليها، بكتْ منذ شهر بحرقة حين رأتني، وقبل أن أهرب منها نهائياً، قالت لي إنها لم تتوقع أن أصبح هكذا، تريد مني أن أكون محترمة، وكل ما حولي غير محترم، ويعلّم قلة الاحترام.

هي لا تفهمني، غسّان يقول لي:

- الأمهات مخلوقات غبيّة بالإجمال، ولا داعي للإصغاء إليهنّ. يمكن معك حق، نعم يجب أن أجلس، لا أعرف لمَ تتمكّن مني هذه الرجفة في الآونة الأخيرة!؟.

أرجوك سيدة زهية، أليس هذا هو اسمك؟ أرجوك أن تعطيني أموالك وتدعيني أرحل بسلام، هذا جزء يسير من أموالك، مبلغ تافه كما أخبرني غسان مقارنة بثروتك، يجب أن أطلب أكثر لكني لا أشبهه، ولست طماعة مثله فاطمئني.

لدينا الليلة حفلة صاخبة كما وعدني غسّان، وسيعطيني كلّ ما أريد، عليك فقط أن تصدقيني أنت حتى أتخلّص من ارتجافي البغيض هذا.

توقعت أن يريحني البارحة، لكنه أرهقني وأنهك جسدي بلا طائل، وكلّ ذلك بسبب موضوع عملك.

سهرتنا كانت صاخبة في غرفته العتيقة، كنّا كثراً رغم صغر حجمها، تناولنا عشاءً بسيطاً، جوزيف حمل معه سندويشات خفيفة، وكان ثمة بيرة والأغاني التي نعشقها Badinga, Outta your Mind turn down for what على أنغامها تناوبنا على شمّ كمية الهيروويين القليلة التي أحضرها عماد، أثرى واحد فينا، والده ضعيف أمامه لا يرفض له طلباً، يريده إنساناً يليق بالحياة التي يضعها أمانةً بين يديه.

كانت البداية هادئة، ثم راحت الأمور تتعقد مثل الغيوم الحاملة المطر والتي كنت أعشقها في صغري، موضوع الامتحانات بدا حامياً، والد عماد يريد ثمن كلّ الأموال التي يغدقها عليه، بعض العلامات الناجحة فقط، لا يطالبه بالكثير، غسّان يحلم بالانتقال إلى حي جديد، باتت غرفته مشتبهاً بأمرها، ويريد شراء سيارة مستعملة يطمح لامتلاك مثلها منذ سنوات، يقول إنّ أخاه الذي يعمل في ورشة لحدادة السيارات قد عاين له واحدة نظيفة، لكن صاحبها متعجّل يريد بيعها حالاً.

أخذ عماد على عاتقه مهمة معاينة السيارة وتحديد سعرها، لا لأنه يريد استعمالها، لديه واحدة من الشركة، اشتراها له والده هديةً بمناسبة عيد ميلاده الفائت.

غسّان يريد استعمالها لتصيّد فتيات جديدات، أولئك اللواتي يكنّ خارجات من الثانوية الرسمية في منطقة عائشة بكار، لا يجرؤ على الاقتراب بالسيارة من منطقة الآي سي (لن يملأ عين أحد)، يفضّل عندها لبس الجينز القذر المهترئ، وارتداء تي شرت سوداء اللون يحتفظ بها للمناسبات فقط، يعلّق سيكارة على طرف شفتيه ويقف ملتوياً، التجربتان ناجحتان، لكل منطقة ناسها ومزاجهم.

ليلى المسكينة اضطرت للموافقة على طلبه، بعض المساعدة المالية، ستقتنص قليلاً من الأموال من خزانة أمها، ذهاب تلك

الأخيرة إلى النادي يومياً يتيح لليلى فرصة لا بأس بها، عليها أن تُحسن استغلالها. يخطط للتخلص من ناظر إحدى الثانويات كذلك، الأخير يعرقل تصريف بضاعته.

- ليلى ألا يمكنك الحصول على مئة دولار لقاء ركوب سيارتي الخاصة، كلّ أسبوع مئة فقط؟.

أقسمَ إنه لن يكلمها ثانية، ولن يسبغ عليها نعمَه إن لم تفعل ما يطلب منها، الأمر عاجل حتى يتصرف بشأن الناظر العنيد الذي يراقب تلامذته بدقة هذه الفترة.

ثم راح يشتمها ويلعن حتى احمرّ وجهه فهدّأه أنطونيو. أنطونيو هو من يهرّب لنا الويسكي عادة، يسرقه من قبو البار الذي يعمل فيه والده. وصل الى سهرتنا لاهثاً، قال إنه خاض شجاراً عنيفاً مع أبيه استمر زهاء الساعة أمام مدخل البناية وسط جزع النساء وصراخهنّ، اكتشف الأبّ زجاجة الويسكي يحملها ملفوفةً تحت إبطه، فعلا صراخه، اتسعت عيناه فجأة كمن لمح عفريتاً لأنه عرف سرّ السّرقات التي دوّخت رأسه خلال سنتين، وقد عجز عن معرفة اللص الذي يُغافله إلى أن اكتشف أنه ابنه دون سواه من النشالين المفترضين.

ضربه غسّان على ظهره، وقال بكبرياء وتشجيع:

- أحبك يا Man.

وذكر لنا بضعة محتالين ومتسكعين جدد يصغروننا سناً، استفسر منهم عن العصابات الصغيرة التي تتشكل حديثاً في الحي والجامعة، وفي نواحٍ معينة من العاصمة، كان يتباهى بقدرته المتجددة على سوق المعلومات إلينا، نظر إليّ مطولاً، وقد بدأت أعصابي المشدودة تسترخي، إذ راح الخدر اللذيذ يسرح ويمرح في خلايا دماغي.

- أنتِ لي معك كلام آخر في نهاية السهرة نتحدث بهدوء فيها.

لم أعلّق...

العالم كله في أنفي الآن، وقد قبضت عليه... كلّ ما عداه ثرثرة فارغة، وفقاعة صابون.

ثم استعلم عن جُوليا، اضطر أن يهزّني قليلاً، أجبته أنها قادمة بعد قليل، هكذا أخبرتني في آخر اتصال لها.

وانصرف كالعادة يحدّثنا عن أيام طفولته ومراهقته التي كان يتسرّب فيها إلى كشك الصحف القريب، يسرق القطع النقدية الصغيرة المعدنية، يشتري بها سندويشات من اللحم المشوي اللذيذ الرائحة، يبتاعه من دكان لحام في حي قريب أكثر فقراً من الحي الذي يقطن فيه، أسعاره أرخص. كل ثلاثة أيام يغافل والده ناطور البناية، ينطلق الى ذاك الحي بعد أن يكون قد شطف الدرج

الطويل المتآكل الدرجات يشتري الرغيف الموعود، يأكله بشراهة ثم يتسلى بمطاردة قطة خائفة من هجومه ومن نظراته العدائية، أو يرمي كلباً بحجر كبير يجيد تصويبه فيكسر ساقه، لينطلق ذاك الأخير يعوي عواء أليماً، ثم يضرب بعض فتية ذاك الحي قبل أن يسلم قدميه للريح.

فكرتُ ورأسي غائم كأن ذلك الشاب القوي الهيئة الذي يقف ويتحدّث إلينا متباهياً كطاووس، ليس في قلبه إلا الجريمة، يخرج من شجار رهيب ليدخل في آخر، وهذا سبب الندوب الكثيرة التي يحملها في وجهه، وفي أنحاء متفرقة من جسده، علامات يجعلني في حالات نجوانا أقبلها واحدةً واحدةً دلالة على إجلالي لها ولمسيرته الكفاحية المريرة في الحياة التي عاشها حتّى وصلتُ أنا إليه.

نفخ دخان سيجارته، وأعلن أنه يحمل هماً جديداً يعنينا جميعاً. الـ Boss الذي يؤمن له البضاعة التي – تتعاطونها – أضاف بمنّة، وتلك التي نوزّعها، وأشار إلينا جميعاً، قد أقلع فجأة عن الخمر وعن التهريب، أكبر مهرّب ويسكي وأفضل مهرب مخدرات، بعد عمك سلطان سيدتي، أصبح متديناً الآن، أعلن توبته الحقيقية، لم يعد يعرفني، ولا يريد تذكر اسمي ولا شكلي، وسيقطع قدميّ

كلتيهما إن فكرت أو فكر أحد في الذهاب إليه، هكذا أخبرني بكل صفاقة... قبل أن ينهي مكالمته بحدة.

كلهم باتوا واقفين على أبواب الجنة يتعجلون الدخول إليها. علق عماد باسماً، عليك اللحاق بهم.

- لقد أخبرني بالأمر عبر الهاتف، ما زلت غير مصدق، بطلنا الأخير التحق بالركب الذي سبقه، وصار غريباً جداً، هذا يلقي على كاهلي أعباء جديدة بالتأكيد.

وعاد الى ذكر البرنس الذي حافظ على مساره الواضح وعلى استقامته حتى نهاية حياته المهنية، اعتزل عند الرابعة والستين كأي موظف حكومي وأعلن عبر رجاله أنه يريد الراحة بعدما أفسح ومهّد الطريق للقادمين من بعده، ولم تُعرف عنه توبة في يوم ما، ولا إلقاء تحية، ولا أية انعطافة إلى أفكار غريبة، ظلّ صامداً ودقيقاً في التعامل مع الآخرين ومع نفسه بشفافية عالية حتى نهاية حياته.

والتمعت عيناه فجأة، تذكر أنّ الرجل قد اختفى، وأنك تبحثين عنه، أخبرني بذلك في منتصف ليلنا، فضرب جبينه بقسوة، وغمره فرحٌ مفاجئ لم يدرك الحاضرون الغارقون في نشوتهم، وأنا منهم، سببها.

قال لنا دفعة واحدة، ودونما مقدّمات:

- هيا بنا.

أظهرنا استياءنا من حماسته التي تفسد علينا جلستنا، أصر على نهوضنا جميعاً، كانت جوليا قد وصلت توّاً.

انطلقنا إلى الشارع، الاضاءة ملوّنة متنوّعة، لفح الهواء المنعش وجوهنا بقوّة، تذكرنا أننا كنا في غرفة مقفلة، وأننا نتبادل طوال الوقت أنفاسنا، سرنا كشلّة متآلفة رغم اختلافنا وتنوّع انتماءاتنا. كان غسّان يسندني كالعادة، بين الآونة والأخرى أتهاوى بين يديه، يصفعني بكفه، ويستأنف جرّي أو جرّ جسدي المترنح.

عند طرف الشارع كان هناك فتيان يلبسون سترات جلدية وسراويل جينز، أحدهم كان يتكئ على دراجة نارية ضخمة على جانبيها صور جماجم ومسدسات، يرفع شعره على شكل ذيل حصان، له شاربان عريضان، ويضع خوذة ضخمة على المقعد، يتكئ عليها، إلى جانبهم وقفت ثلاث فتيات جميلات، إحداهن ذات وجه جذاب للغاية، تلبس تنورة قصيرة سوداء اللون، وقميصاً أحمر لافتاً. ثمة أقراص كثيرة قد توزعت على وجهها، طرف أنفها، شفتها السفلى، ذقنها، على أذنيها، وتضع أساور لا تعدّ في معصميها.

رفعني غسّان عن الأرض وقال لي:

- انظري إليها جيداً، ما أجملها، هي أجمل منك بمرّات... لم أعبأ، اعتدت هذا النوع من الأقوال منه في الآونة الأخيرة.

- لها وجهٌ عذب وعينان لعوبتان، أحببتُ مؤخرتها... ستكون لي وسأريك.

تجاوزناهم وعين غسان لا تفارق وجه تلك الصبية، انتبهت إليه وهو يغمزها، لوت شفتيها ثم ابتسمت، تجاوزنا شلتها بمسافة، أصرّ على العودة، عدنا نتمشى أمامهم وقد ألقى بي الى جوزيف الذي اشتمّ عنقي سريعاً فلم أعبأ، وقف يتحدّث معها ويشير إلينا، دعاها للسهر مع جماعتنا، كما قال عندما عاد إلينا، كان رفاقها ينظرون إليها بحدّة، اعتذرتْ قال إنها مرتبطة بأصدقائها، وعدته في الليلة التالية.

عاد عَكِرَ المزاج، حين حاولتُ العودة إلى أحضانه دفعني إلى جوزيف مجدداً، فتلقاني كعادته بلهفة. تابعنا سيرنا، لمح رجلاً متأنقاً يعلق حقيبة جلدية سوداء في كتفه وكأنه أحد السيّاح، قرّر انتشاله حاول شدّ حزام الحقيبة بسرعة، تنبّه له الرجل، كان يمسك حزامه بقوة، اعتذر غسان بوقاحة، لمسه عن غير قصد أخبره، لسعه الأخير ببضع كلمات نابية، جمع غسان قبضته يريد إرسالها إلى وجهه، لكنه تنبّه إلى الشرطي المارّ على دراجته وسط الشارع، عدل عن تصميمه.

سار أمامنا حتى انتهينا إلى أحد البارات المنتشرة في الشارع.

في أرجاء القاعة السفلية شبه المعتمة، كان فتيان وفتيات

يغنون ويصرخون، نادل شاب يمسح الكؤوس ويناقش عجوزاً طويل الشاربين بفتور واضح، الموسيقى الصاخبة تهدر عبر مكبر الصوت، بدا أنّ العالم كله يشتعل، الصبية ذات التنورة القصيرة ظهرت فجأة عند الباب الضيق، أشعّ وجه غسّان فاقترب منها وشدها من يدها، لم تمانع، كانت بمفردها، دخلت مترنحة، لم تبدُ أفضل مني حالاً الآن، رأسي الدائر فكر قليلاً أنها ربما تكون قد لحقت بنا، قدّم لها غسان شراباً بسرعة، ارتشفت رشفة بعد أن رفعت كأسها عالياً ثم سكبتها على الأرض، لكن عن غير قصد كما ظهر جلياً، ربما حصلت على كفايتها من المخدر، فكرت بيني وبين نفسي.

- هوّني عليك حبيبتي.

قال لها غسان ذلك وشدّها بقوة إليه ثم قبلها على شفتيها، نظرت إليه بشيطنة ثم ضحكت، أسرع النادل ووضع لها زجاجة ويسكي فتحها خصوصاً، قدّمها مع كأس جديدة، وداعب خدها، يظهر أنها زبونة دائمة في البار، احتضنتها وهي تكرع كأسها، بقي رجلي واقفاً في جوارها، راحت تشرب الكأس تلو الأخرى، لم أرَ في حياتي فتاة سكيرة كهذه، قدّرت أنها في الثامنة عشرة فقط، كلما أنهت كأسها قدم لها أخرى ابتلعتها سريعاً.

أحسست بجوفي يغلي ويشتعل وأنا أنظر إليها، انسحبتُ

من الحلبة، لم أعد أرقص، جلست على الكنبة الجلدية الوطيئة أراقبهما، أتى شاب دعاها إلى الرقص متمايلاً، رافقها وهو يتمايل وفق تمايلها، راحت تحرّك جسدها بجنون وتتلوى، سحبها غسان إلى جواره عند البار، عادت تتمايل متضاحكة، نسيني غساني تماماً، صار كثير النسيان لي في الآونة الأخيرة بعد أن كان يدّعي أني أميرته الصغيرة. كان منشغلاً تلك الليلة بجعلها أميرتَه، دجاجة أخرى، انطلق شاب يتمايل باتجاهها، يلبس سروالاً ضيقاً يكاد ينفجر، يرسل شعره الأشقر الطويل على ظهره ويتباهى به واضعاً يده اليمنى على خصلاته الطويلة.

- هاي أحمد.

انطلقتْ معه إلى الحلبة مجدداً، غسان يظهر غاضباً، يبدو وجهه مشتعلاً كلما ألقت الأضواء الملونة ظلالها عليه. أعادها إلى موضعها السابق قرب البار، ارتشفت كأسها، راح يقبلها بغيظ، وهي تتضاحك وتلهو.

عند الباب وقف شبان ثلاثة، صاحب الدراجة الضخمة يتقدمهم، اقترب منها وشدّها من ذراعها، «علي بابا والأربعون حرامي» وبنات الليل الساهرات، عالجه غسان بضربة على وجهه، ردها الشاب المفتول العضلات بسرعة فائقة أثارت إعجابي، وأنعشتني قليلاً، ثم سحب سكيناً من جيب سترته الداخلية سرعان

ما لمع نصله، لوّح به أمام وجه خصمه، تراجع غسان بخفة، الواقف إلى يمين الشاب القوي همس بأذنه أمراً، فهزّ الشاب القوي رأسه ثم انطلق الثلاثة، والفتاة بصحبتهم، مدّت لسانها وهي خارجة، اقترب عماد من غسان وخاطبه بهدوء، بدا الأخير مستفزاً، لكنه حنى رأسه موافقاً، بعد عشر دقائق غادرنا البار، ورجلي ما زال منزعجاً، كنت رغم ثقل رأسي أحس بشماتةٍ عميقة به.

في غرفته الضيقة استعاد حماسته، صرخ بنزق.

– سوف نسكر الليلة...

هللنا له، وبعد الكأس الثالثة التي احتسينا من زجاجة أنطونيو، قال له عماد ضاحكاً:

– والدك يبيع ويسكي مغشوشاً.

ضحك أنطونيو بطيبة ثمّ رفع كأسه عالياً بينما صرخ غسان:

– اللعنة عليكم جميعاً يجب أن أقتني سيارتي الخاصة، التفت إليّ بحدة كأنه تذكرني فجأة:

– سأمقتك بشدة إن لم تؤمني لي الأموال غداً.

أحسستُ أني أنظر إليه كطفل ضائع مستعدّ لكل ما يُطلَبُ منه في سبيل العودة الى أحضان أمه.

ثمّ ارتفع الصراخ، وعلت الضحكات في أنحاء الغرفة، وسادت فوضى عظيمة.

حين استيقظتُ صباحاً كانت علب البيرة مرمية على الأرض، زجاجة الويسكي الفارغة، زجاجة الفودكا، الأكواب البلاستيكية مبعثرة، أوراق السندويشات، بعض ملابسنا الداخلية الملونة قد اختلطت بملابسنا الخارجية الملقاة على الأرض القذرة، دماغي مبعثر في كل الأنحاء، وصداعٌ رهيب يدفعني إلى الجنون.

فتح غسان عينيه المتورمتين قليلاً، أطبقهما، وعاد يذكرني وهو يداعب شعري مغمض العينين بما كان قد طلبه مني في الليل، وهو يضاجعني.

- ستذهبين إليها وتقنعينها إنك رأيت عمّها، وستعودين بالأموال، إذا فشلت ميرا لن تري وجهي بعد الآن أبداً، تذكري هذا الأمر جيداً.

وكما ترين سيدتي فهو سيحضر تلك الفتاة الصغيرة اللعوب التي تبدو أصغر مني، وأكثر نظافة وثراء، لاحظت حقيبة يدها، عليها حرفا C.K، سابقاً كنت أحلم بامتلاك مثل هذه الحقائب الجلدية، والدتي كانت تقول لي عندما تنهين دراستك الجامعية ستمتلكين كل شيء، تذكرني بكلّ التضحيات التي قدّمتها كي تلحقني بهذه الجامعة التي تشرع أبوابنا نحو الحياة، غنى صديقتي الحميمة سابقاً حذرتني كثيراً من غسان، ومن سمعته السيئة لكنني لم أصغِ، لم أكن أسمع.

- هل ضللتُ الطريق سيدتي؟ تقولين إني ضللتُ طريقي وإني صبية ضائعة...

أرجوكِ يجب أن تساعديني، افترضي أنك رأيت عمك في الشارع، وأنه تائه مثلي، ألن تساعديه عندئذ؟ تقولين لا؟ لمَ؟ لا لا لن أعطيها لغسان أعدك. أريد مبلغاً لنفسي سأسعى للتخلص من إدماني، طبعاً طبعاً أعدك أني لن أسعى إليه بعد الآن، سأتوقف عن البكاء سيدتي، لكني بحاجة إلى ما يوقف ارتجاف يدي، وإلا سأنتحر، وحياة عمك الذي تحبينه كثيراً سأفعل ذلك. ابتعدي فقط عني إياك أن تضعي يدك عليّ، أبعديه هو الآخر عني، لا بد أن أعود إليه بالأموال، وإلا سيستبدلني بفتاة التنورة القصيرة، لم لا تفهمين ما أقول لك سيدتي؟ أرجوك أنا متعبة أرجوك ابتعدي عني، وأبعديه هو الآخر عني.

(١١)

بتاريخ ٢| ٣...

الخبر الثاني في نشرة أنباء المساء:

تثير قضية اختفاء الملياردير اللبناني الشهير سلطان بك زعتر موجةً عارمةً من التساؤلات حول مصيره المجهول، وحول مكان اختفائه الذي تجاوزت مدته السبعة أشهر. آخر الأنباء تفيد أن لا جديد في قضيته التي تتابعها عن كثب ابنة أخيه السيدة زهية عاصم زعتر، وقد اتهمت السيدة المذكورة زوجته الشابة الأخيرة بين نسائه بالتآمر على عمها، وبإساءة معاملته في الآونة الأخيرة من وجوده في القصر العائد إليه، وبالمساهمة بعدها في عملية إخفائه عن الأنظار للاستفادة والاستيلاء على ثروته الطائلة، ويبدو أن النيابة العامة متجهة الى التحقيق العاجل مع تلك الزوجة.

هذا وتجدر الإشارة إلى كثرة المدعين في هذه القضية، إذ تتعرض السيدة زهية منذ بداية هذه الأزمة الإنسانية لاتصالات وتحرشات كثيرة مباشرة، أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي

المختلفة، يدّعي أصحابها رؤيتهم لسلطان بك في أماكن متعددة من البلاد. لذلك تعتذر السيدة المذكورة عن تلقي مثل هذه المعلومات المضللة بعد اليوم، وقد أبلغت دائرة الشرطة بالأمر طالبة من رجالها مساعدتها على ردّ المتعرّضين لها.

بتاريخ ١٨| ٣...

نشرة أخبار المساء:

استدعى قاضي التحقيق الأول اليوم صباحاً السيدة المدعوة تانيا مزهر زعتر زوجة الملياردير اللبناني سلطان بك زعتر إلى التحقيق والمساءلة حول قضية اختفاء زوجها منذ مدة زمنية طويلة.

حضرت السيدة الجميلة البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً، مع التذكير بأن زوجها قد أتم الرابعة والسبعين من عمره، مع محاميها اللامع السيد اسكندر وتّار الذي صرّح لوسائل الإعلام الكثيفة التي أحاطت بالمبنى، مفيداً أن السيدة موكلته بريئة براءة الملائكة من كل التهم الظالمة الموجهة إليها، وأنَ كلّ ما قيل عن تآمرها على زوجها الذي تحبه حتى الموت، والذي تزوجته بعد حالة حب عاصف هزت الرجل المتداعي هزاً، هو محض كذب وافتراء، وأنها بصدد رفع دعوى رد اعتبار على المدعوة زهية زعتر التي تسببت بكل هذه القضية وبتداعياتها. ودعت النساء الحرّات

الشريفات إلى مناصرتها في هذه القضية العادلة والمحقة، وقد تساقطت بعض دموعها قبل انصرافها الى التقاط الصور التذكارية.

بتاريخ ٣٠|٣...

نشرة أخبار المساء:

أظهرت التحقيقات التي أجراها القاضي ع.ع مع السيدة تانيا مزهر زوجة الملياردير اللبناني براءة السيدة الشابة من كل التهم المنسوبة إليها، والتي تبيّن من خلال التحقيق السري معها، وعبر مراقبة هاتفها وتحرّكاتها خلال هذه الآونة، أنها كانت مخلصة لزوجها، ومتألمة أشد الألم لغيابه القسريّ عنها، بدليل فقدانها خلال فترة غيابه الوجيزة حوالى ستة كيلوغرامات من وزنها.

هذا وقد أعلنت السيدة تانيا، فور خروجها من مبنى قصر العدل، عن تبرعها بمبلغ مالي ضخم لإحدى مؤسسات العناية بالعجزة إكراماً ووفاءً لزوجها الذي كان بمثابة الزوج والأب والأخ والجدّ والصديق بالنسبة إليها، كما أعربت عن استعدادها للقاء أية وسيلة إعلامية، وجعلها تلتقط صوراً مجانية لها، لتساهم في توضيح المسألة أمام المواطنين، وللتصدي للحملة الإعلامية العنيفة والمغرضة التي تعرضت لها نتيجة كيد السيدة زهية زعتر وحقدها عليها، معلنة كذلك عن إنشائها جمعية لمناهضة العنف

ضد النساء الصغيرات، محرضةً النساء الشريفات على مساندتها في مساعيها، وعلى المسارعة للانضمام إلى جمعيتها.

هذا وقد أخلّى القاضي ع. ع سبيل السيدة النبيلة بعد أن كان قد أوقفها على ذمة التحقيق مدة ست ساعات فقط، خرجت بعدها رافعة إصبعين من أصابع يدها اليمنى تدليلاً على انتصارها، وعلى براءة ذمتها.

وفي إحدى الصحف المحلية المتابعة لقضية الاختفاء الحَدَث في بلدنا إشارة الى التحقيق الذي خضع له سائق سلطان بيك زعتر، الذي أمضى في خدمة المغيَّب أكثر من أربعين عاماً رافقه خلالها في سرائه وضرّائه، وكان له التابع الأمين، حيث تم استجوابه فأعلن أنه أحب سيده سلطان أكثر من نفسه، وأنه يكاد يجنّ قلقاً حياله، ومقهور لأنه لم يعرف كيف غادر الرجل القصر ليلتها، إذ كان غارقاً في سابع نومة، لأن البك كان قد انقطع عن المشاركة في المناسبات العامة، ولم يعد يستدعيه ليلاً، لذلك تعوّد هو النوم باكراً، فسنّه لم تعد تسمح له بإطالة السهر.

أما السيدة الصغيرة، يعني الزوجة، فقد اتخذت لنفسها سائقاً جديداً يماثلها شباباً وحيويةً وجنوناً «وبمجرد اختفاء سلطان بك

قامت بطردي دون تعويض عن خدمتي الطويلة قائلة بصفاقة إنني نلت نصيبي من سيدي وكفى تدليلاً واستغلالاً لأموالها وأموال أبيها وأسرتها كافة!».

الحفلة الأكثر ضخامةً....

في حفلة ضخمة أقيمت في فندق ليتسيا، ضمّت أكثر نساء مجتمعنا المخملي ثراءً ونبوغاً وفعالية، أعلنت السيدة تانيا مزهر، بعد حوالى أسبوع على محاكمتها، عن تأسيس جمعيتها لمناهضة العنف ضد الزوجات الصغيرات (نساء بلا حدود)، وقد تمت تغطية الحفلة إعلامياً بشكل موسّع، وسارعت زوجات الصف الثاني إلى الانتساب إليها، وصرّحت معظمهنّ لوسائل الإعلام التي تسابقت لمحاورتهنّ بالتأكيد على عظمة السيدة المظلومة تانيا، وعلى دعمها في صمودها وتصديها للحملة المغرضة التي شنتها قريبة زوجها المختفي سلطان بك، مشيرات الى إيمانهنّ المطلق بصوابية قضيتها وعدالتها وإنسانيتها، وإلى أنهن سيسعين إلى إيصال صوتها هذا إلى العالم بأسره، وربما أوصلنه إلى محاكم العدل الدولية سعياً لإحقاق الحق، ولنيل كل ذي حقّ حقه!

وتداولت الصحف الصّادرة بتاريخ ١٥/ ٤ أنباء جلسة مجلس الأمة التي عُقِدت في المقرّ الوزاري بشكل طارئ للبحث في قضية

اختفاء الملياردير اللبناني سلطان بك زعتر، بعد مضي ثمانية أشهر على غيابه، وقد أبدى الوزراء استغرابهم واستياءهم العميق من غياب كل أثر للرجل، وهو الشخصية الديناميكية الفاعلة خلال حقبة حساسة من تاريخ هذا الوطن، ونتيجة البحث الجدي في ظروف وملابسات هذه الحادثة المستنكرة تقرر تأليف عدد من اللجان المختصة للمتابعة اليومية لمجريات الأحداث، ولكل الحيثيات الطارئة على الساحة، وبما أنّ الملفّ حامٍ، ولا يحتمل أي تأجيل أو مماحكة فقد تمّ بإجماع كلّ المجتمعين تعليق البحث بأية مسائل أو قضايا أو مشاريع عاجلة أو آجلة حتى الوصول إلى الحقيقة الناصعة الجلية المتعلقة بمصير هذا المناضل الوطني الكبير.

وينبغي التنويه بأنّ المجتمعين قد توافقوا على تسمية أحد شوارع العاصمة باسم المختفي، وتقرّر اتخاذ جميع التدابير اللازمة لإنفاذ هذا القرار، وذلك ابتداء من صباح اليوم التالي للاجتماع المعقود. إضافة إلى أنه، ومن خارج جدول الأعمال، تمّ إقرار مشروع على وجه السرعة، مفاده التوافق على يوم عالمي للاحتفاء بالكلاب، وذلك بمناسبة مرور عام كامل على اختفاء الكلبة ميمي العائدة إلى أحد الوزراء.

بتاريخ ١٥| ٥

انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي أخبار عــن وصيــة ما سيُكشف النقاب عنها تعود إلى الثري الغائب / الحيّ سلطان بك زعتر سيتولى محاميه الكشف عنها قريباً، وقد تكرر الخبر مراراً ملاقياً رواجاً سريعاً وحصاداً لعدد هائل من اللايكات.

بتاريخ ١٩| ٥

نقلت وسائل الإعلام مؤتمراً صحافياً مصغّراً، كان النقل فيه حصرياً لبعض الوسائل الإعلامية دون سواها، أعلن فيه السيد نخلة جبور محامي سلطان بك زعتر منذ سنوات أنّ موكله المذكور قد زاره قبل اختفائه بمدة أسبوع واحد تقريباً، بدا خلال الزيارة متأثراً للغاية ومنزعجاً، وقد رفض الإجابة عن كل الأسئلة «التي طرحتُها عليه بإصرار، وذلك بحكم العلاقة الطويلة التي تجمعنا».

انتهت الزيارة بتعديل سلطان بك وصيته طالباً مني إخطار الورثة بمضمونها في مساء يوم ٣٠| ٥ من هذا العام دونما إبطاء، وأيّاً تكن الأسباب التي قد تستدعي ذلك.

ووسط حملة إعلامية مكثفة طالت الجرائد والمجلات ولوحات الإعلانات المنتشرة بكثافة فظيعة على كل طرقاتنا،

ومن خلال صداقاتهنّ الهائلة عبر الفيس بوك، وتويتر، والأنستا غرام دعت سيدات جمعية «نساء بلا حدود» ورئيستها النبيلة السيدة تانيا مزهر الى الطعن بوصية زوجها المختفي عن الأنظار منذ عشرة أشهر بالتمام والكمال، والتي قضت بحرمانها من كامل ميراثها الشرعي، وبجعل حق الانتفاع بالثروة عائداً بشكل حصري إلى السيدة زهية عاصم زعتر بنت أخ المختفي بلا رجعة سلطان زعتر، وأصرت تلك الوصية ومن خلفها صاحبها على طرد النبيلة تانيا من قصرها، واسترجاع كل ممتلكاتها غير المنقولة، والمنقولة من سيارات ومجوهرات وثياب فاخرة وأحذية وتسليمها إلى دار الأيتام بعد أن يجري تعقيمها وتوضيبها، مع التنويه بأن العقارات التي قد سبق تسجيلها باسمها، إنما تم ذلك بعقود وهمية بغية اكتشاف معدن الزوجة الحقيقي.

هذا وقد اتهمت النبيلة المذكورة السيدة زهية بالتلاعب بالوصية، وبالإشراف على إخفاء عمها العجوز المتصابي، ناعتةً إياها بالفاسدة كعمها ذاك، وبإقامتها علاقة غير مشروعة مع السيد نخلة والقيام بإغوائه طوال الفترة المنصرمة حتى قيامه بتعديل الوصية على هذه الشاكلة الشائنة.

وقد خُتم البيان الذي وقّعت عليه سيدات الجمعية، والسيدة

الرئيسة طبعاً بدعاء حارّ ومعجّل بأن يقيم المدعو سلطان زعتر في أسفل دركات الجحيم بعد موته شرّ ميتة عقاباً غير وافٍ له على جنونه، وعلى اختفائه، ولإتاحته الفرصة لقريبته باستغلال الوضع على هذه الصورة الزرية.

بتاريخ ٨|٨..

قام وزير الشؤون الاجتماعية عند تمام الساعة الواحدة ظهراً بالافتتاح الرسمي لمركز «إعادة التأهيل والإصلاح» الذي موّلته، وقامت بالإشراف على إنجاز أقسامه، وتأثيث غرفه السيدة المحسنة زهية عاصم زعتر مطلقةً عليه اسم عمّها المتواري عن الأنظار سلطان بك زعتر، وقد أكد الوزير في كلمته القصيرة التي ألقاها:

«على أننا شديدو الاعتزاز بهذه المحسنة الفاضلة التي قامت بسدّ عجز فاضح في مؤسساتنا من خلال إنشائها مؤسسة عظمت حاجة المجتمع إليها، فما دمنا ندفع شبيبتنا بطريقة أو بأخرى إلى اليأس والإدمان بارتكابنا الكثير من الفظائع في حقهم، فعلينا أن نقوم أقلّه بإعادة تأهيلهم، وهذا أضعف الإيمان كما يُقال. لذلك قررنا منح السيدة زهية جائزة (التحديث والعلاج) عربون تقدير لمشروعها الرائد هذا».

وتجدر الإشارة إلى أن المركز قد باشر باستقبال المدمنين والمنحرفين منذ شهر ونصف الشهر تقريباً وهو يشرف على علاجهم، وعلى إعادة تأهيلهم، وتسهيل عودتهم الى الحياة المجتمعية السليمة، ولكن هيهات، فقد بلغ عددهم حتى الآن الألفي مدمن ومدمنة، والطلبات المقدمة لعناصر جديدة قادمة تفوق هذا العدد بكثير، ولذلك تفكر السيدة في افتتاح مبنى جديد يكون مؤهلاً لاستيعاب هذه الأعداد المندفعة.

ولمّح لها وزير مختص كان حاضراً المناسبة كذلك أنه سيكون ممنوناً من قلبه لو تكرمت وقامت بإنشاء مبنى جديد يلحق بالسجون الموجودة التي تكتظ بمسجونيها «حرام». مفردة أفلتت منه ألقاها همساً في أذن المحتفية عن قرب، لكن أحد المراسلين الحاذقين استطاع قطفها من فمه طازجة ليسرّ بها إلينا.

وفي اللقاء السريع الذي أجرته الصحافية الفذّة «انتباه» مع المدمنة الشابة ميرا، أكدت تلك الأخيرة على كون المركز مكاناً رائعاً، حَسَن التجهيز، والإقامة فيه مذهلة، وأنها باتت تفضل البقاء فيه على العودة إلى الشارع، لكنها كانت قد وعدت أمها التي تحبها كثيراً بالعودة القريبة إلى جامعتها، وإلى حياتها الطبيعية، ولم تنسَ توجيه التحية إلى السيدة الرائعة زهية زعتر على جهودها المخلصة،

وعلى مبادرتها السخية هذه، وشتمت عمها سلطان بك زعتر الذي يُعتدّ بأنه من أوائل الذين أدخلوا ونظّموا تجارة المخدرات إلى بلادنا، متسائلةً بحدّة:

- هل كان الرجلُ يفكر في القضاء علينا؟ أنا لا أستطيع فهم رأسه أبداً. اللعنة عليه.

أما الصحافية «انتباه» فقد سارعت الى حذف الشتيمة المقذعة، وإلى إنهاء المقابلة بابتسامة شاحبة، وبتمني الشفاء العاجل للمدمنة الشابة ميرا.

(١٢)

في قرية لبنانية نائية، تكاد تكون منقطعة عن حياة ما يُدعى حضارة وتحضّراً، تبرزُ بيوت صغيرة عتيقة، جميلة ورائعة في بساطتها وتضادّها مع التعقيد، تحيط بها حدائق مزروعة بأشجار كرز وتفاح وإجاص، في نهايات بعضها أكواخٌ خشبية صغيرة تتعالى من جنباتها أصوات ديكة تصيح عالياً، وأصوات دجاجات تقوقئ.

بعض السياجات خضراء، تشكلت من أشجار السرو والشوح واللزّاب، أرضٌ بعيدةٌ عن قلق البشر وعن نظام لهاثهم العبثي، لا شيء يُعكّر الهدوء والسكينة. السّماء تتمارى قريبةً زرقاء بيضاء تمطر سلاماً رقيقاً على تلك الناحية، مكان ربما فرّ من حلم زاوٍ في يوم من الأيام.

في ناحية قريبة من تلك البيوت، وعلى أرض بدت وكأنها التلة المجاورة لها، يستكين منزل حجريّ بسيط، عن يمينه سقيفة ذات أعمدة خشبية ثخينة عرّشت عليها أوراق النباتات البرية المتسلقة،

نوافذه زجاجية صغيرة، مَغَاليقها من خشب الأرز المعتّق، متداعية لكن أنيقة، تحمي ساكني المنزل من البروق والرعود.

وراء المنزل شجرة تفاح مثمرة، وشجرة زعرور بري تحمل ثماراً خضراء صغيرة، وصفّان كاملان من شجرات الكرز القصيرة زهرية كعرائس الفتيات الصغيرات في الأعياد، تفتحت زهراتها دفعة واحدة في هذا العام.

أمام البيت فناءٌ رحبٌ ذو عشب صغير، ذكر بطّ يتهادى في مشيته مطمئناً، هرة بيضاء اللون تقترب منه وتبتعد، تناغيه بين آنٍ وآن، يكرج خلفها، تهرب فيهدأ، يستطيبان هذا اللهو المجاني يقطعه ثغاء عنزةٍ قريب.

ثمة خوان عتيق متآكل الجوانب عليه حبّات جوز كثيرة، أكواز صنوبر بنية اللون، قليلٌ من المشمش المجفف ومن الزبيب الأسود. السيدة الجالسة قربه تنظف بعض عروق الهندباء البريّة، مازال التراب عالقاً بجذورها بقوة، تزمّ شفتيها وهي تقطع الشروش القاسية، ترميها على التراب بعيداً، تضمّ العروق الخضراء الندية، تفرمها قطعاً كبيرة أو متوسطة ثمّ تضعها بخفّة في إناء متسع، تقترب البطة بين الحين والآخر من وعائها، ترمي لها بعض الأوراق، فتبتعد، وقد تطلق صوتاً محشرجاً من حنجرتها فتفرّ الهرّة وهي تنظر إليها

بحذر، تخاف من انقلاب مزاجها المفاجئ، ومن مهاجمتها بدون سابق إنذار.

تفترش الشمسُ السقيفة المغطاة فقط بالأوراق الخضراء، نسيمٌ لطيف يعبر المكان، يحرّك خصلات شعر المرأة البني اللون، خالطه شيبٌ في الآونة الأخيرة ابتسمت له، حاول سلطان استثارتها يوماً:

- نساء المدينة يعتبرنه فضيحة أعمارهنّ، يغطينه طوال الوقت، ويسارعن الى تلوينه.

تبتسم له ولا تجيب. أمورٌ كثيرة لا تجيبه عنها، يبقى وجهها دائم الابتسام تقريباً، حتى ولو كانت تتحدث أو تصغي.

في عينيها تنام طيبة منذ زمن، تغري زائرها بالاستضافة، عاشت حياةً صافية هادئة حتى عندما فقدت زوجها الأوّل والأخير بقيت هادئة مبتسمة، بكته في البداية فقط، بعد ذلك سكنها اطمئنان واثق بأن الحياة لا تحمل لها إلا الخير، قد يصحّ القول إنّ هذا الاطمئنان هو ما جذب سلطان زعتر إليها أم هي الحاجة التي فعلت؟

حين وصل سلطان يوماً إليها، ولا تدري كيف وصل ولا هو حدّثها عن الأمر، كانت تجلس جلستها هذه نفسها، تطعم ذكر بطّها بيدها، تجعل العشب الأخضر لفائف ثم تلقمه إيّاها، يلتقطها ذاك بمنقاره الكبير، ثم يكرج بعيداً ليتغاوى في المكان.

كان مطرٌ آذاريٌّ جميل يضجّ بأبهةٍ ينساب ضارباً أوراق اللزاب المعمّرة عند مدخل حديقتها ثم يهوي على الأرض، يتساقط دقائق ليتوقف ساعة، طقسٌ منعش تعشقه، طائران يتناغشان تحت حبات المطر يحلقان ثم يعاودان الاختباء بين الأغصان الكثيفة، يتوقفان ثم ينطلقان تنظر إليهما بمودة، تتذكر زوجها مرهج، يأخذها حنين ناعم إليه؟

من بعيد رجلٌ سبيعيني غريبٌ، يرفع يده ملوّحاً، بدا على مشيته وعلى وجهه الارهاق والتعب، نظرت إليه ثم قالت

- تفضل.

بعد جلوسه قدّمت كوباً من عصير التفاح الطازج، وصحناً من حبات الصنوبر والجوز التي أزالت قشورها منذ يومين، وانطلقت تحكي:

- مضت خمسة أعوام على رحيل زوجها، تستعيد ملامح وجهه المحبّب، عينيه الوديعتين، والابتسامة الساخرة المعلقة على شفتيه، تستحيل وديعة كلما حضر الى منزلهما ضيوفٌ طارئون، بعض الذين تستهويهم حياة القرية، يتفرجون عليها من بعيد، فيلم سينمائي يجني متعةً موقتة كذلك الذي شاهدته مع مرهجها يوماً، وبعدها يعودون إلى صخبهم.

كان رجلها مزارعاً رفض مغادرة أرضه، يشتغل بشؤون

الزراعة، يُعنى بأشجار التفاح والكرز في بستان قريب، أجّرته بعد موته لصديقهما مهيار، يحبّ أشجاره بشدة كما أُحبّكِ يقول لها، يشرف على قطافها في المواسم العامرة بالخير، يرصّها في الأقفاص ينزلها إلى السوق. في جوارها مراطبين المربى: تفاح وكرز تحضرها هي خلال أيام في إناء نحاسيّ كبير يحوم حوله النحل الطنّان، فتشعل الشموع لصدّه، بعد ذلك تقوم بتوضيبها.

باعت الشاحنة بعد موته، لم تصدّق في البداية أن رجلها قد مات بسبب شجار في السّوق، احتجوا بتداعيات الحرب الحمقاء، وبالمشاحنات التي لا تنتهي فيما بينهم، تتوالد كضفادع المستنقعات قالت لهم:

- دائماً في اجتماعكم حربٌ وقتلٌ.

وبعدها أقفلت بابها في وجه كلّ المعزّين. لم تنزل معه في ذلك النهار، غالباً ما كان يعود عصراً، بين يديه سلته التي ملأها بالمشمش المجفف عند الذهاب، وبالجبن وبعض اللحوم أو الأسماك عند الإياب، تعدّها عشاءً طيباً لهما يتناولانه مع بعض كؤوس النبيذ البلدي. ثم يقضيان سائر أيام الأسبوع يستطعمان الحشائش البرية وبعض البقول.

عند الواحدة ظهراً من ذلك النهار سمعت ضجيجاً في الخارج، ظنته أصوات بعض الزبائن، تعرف أن بعضهم يحبّ أن

يأتي إلى منزله، يطمعون في تخفيض إضافي للأسعار، لم يكن يخيب رجاءهم في العادة.

فتحت الباب تريد إخبارهم بعدم وصوله، فوجئت بمجموعة من الرجال يهبطون من شاحنته، اثنان في المقدمة، وثلاثة في صندوقها، نزلوا بسرعة، تعاونوا على إنزاله من الشاحنة، ذراعاه تتدليان تمسحان الأرض التي يعشقها، أدركت بسرعة أنه مات حتى قبل أن ترى الدماء المنسابة من ظهره المثقوب حين رفعوه، كان يلبس قميصاً بنياً، لم تدرك في البداية إصابته، بعد ذلك فهمت.

رفضت أن يدفن في مدفن البلدة القريب، قالت بقوة سندفنه في حديقة المنزل، لا أستطيع العيش بمفردي طوال الوقت.

كانت حاسمة ولم تقبل نقاشاً، أتم الرجال الحفر والدفن وتسوية التراب كما أرادت تماماً. لم يجرؤ أحد على مناقشتها، بعد رحيلهم جلست على التراب وظلت تبكي حتى أشرقت الشمس. بعد أسبوع زرعت وروداً كثيرة على تلك الرقعة الترابية، استطالت في السنة التالية وباتت أشجاراً صغيرة تحمل مئات الورود.

أخبرت سلطاناً بكلّ هذه التفاصيل، ضحك وقال لها بعد هدوئه:

- إذاً أنت ستتولين دفني، محطتي الأخيرة هنا يا امرأة، لا تدعيهم يعيدونني إلى هناك، طلّقت دنياهم بالثلاث.

عند العشاء قَلَتْ له بيضاً طازجاً، ووضعت أمامه كوباً من لبن الماعز. قال لها عند الصباح إنه طوال عمره لم ينم بعمق كتلك الليلة التي أمضاها في منزلها.

في اليوم التالي تَسَامَرَا طوال الليل، أخبرها أنّ ذاكرته لا تسعفه على تذكر كلّ شيء، لا يزال يحتفظ فيها ببعض الثقوب تسمح للضوء بالتسرب، وأنّ وجهها بدأ ينير عتمةً تسكنه كَلَيل. طلب منها أن تسمح له بمشاطرتها السلامَ الذي تنعم به. عرفت أنه فارّ من ماضٍ يؤرّقه، تستيقظ أحياناً على صوته يعلو في الليل، يهاجم أحدهم، يصرخ في إحداهنّ أو يحتجّ بدفاع طويل، عند الصباح تتركه ينسى، لا تسأله كي لا يغرق مجدداً في عتمة ليلِه، فضّلت رؤية ابتسامته وطيبته ليس إلّا، وأدركت مع الأيام أنه لا يتقن صنع شيء.

سألته مرة ضاحكةً:

– كيف كان يَعْتَاش إذاً؟

– كنت أخططُ فقط وأجعل الآخرين يؤمنون لي الحياة.

هزّت رأسها، صدّقت ما قاله، ثم عقّبت بعد وقت:

– تستهلك الحياة متوهّماً صنعها، الآن أفهم سببَ العتمة التي تغرق فيها رويداً.

قال لها:

– اسمعي حين أموت ستتركينني أنام هنا في حقولك هذه، عساي أن أتمكن من بداية جديدة، ما أدراكِ قد أصبح شجرة تفاح تصنعين منها مربياتك يوماً ها ها ها أتعتقدين بالبدايات الجديدة؟

– البدايات لا تنتهي يا صديقي، البشر لا يملّون الحديث عن النهايات والتهويل بها، متناسين أن الحياة لا تحب شيئاً أكثر من البدايات والولادات المتجددة، الورود والأشجار، الدجاجات والعصافير وهذه الظلمة التي تندحر كل يوم أمام ضوء النهار، وغير ذلك مما لا يُعدّ، كلها تشهد على ما أقول.

تنظر إليه، إلى صديقها الجديد، يمشي بهدوء في الحقل البعيد، الحشائش تتعالى في هذه الآونة خضراء ندية، بات خطوُه ثقيلاً، لكنه ما زال يتقدم. يداها تتابعان العمل، وبين الآونة والأخرى تنظر إليه.

يتوقف قليلاً ثم يعاود السير، يعاين أشجار اللزاب السامقة، طيور الدوري تحوم، نسرٌ يحلق قرب غيمة يلمح شيئاً ما على صخر فيهوي، بعدها يعاودُ الطيران.

كان لا يزال يتقدم حين بدا لها أنه تعثّر بشيء ما، ابتسمت له، تفكر أنه يؤنسها في الآونة الأخيرة، وأنه رغم شروده إنسان طيب، يخبرها أحياناً بتخابث ظاهر أنه ليس طيباً كما تراه، وأنه آذى نساءً كثيرات، وآلم من البشر الكثير. تنظر إليه بمودة، وتؤكد له:

- أميلُ إلى صحة اعتقادي بطيبتك مهما قلت لي.

تنتبهُ إلى أنه بات يقف الآن بصعوبة، انتصبتْ هي عندها، بدا لها الرجل وكأنه في محنة ما، لأول مرة تتخلّى عن هدوئها.

أزاحت الكرسي الخشبيّ من أمامها، أبعدت الوعاء بسرعة، بحثت عن العصا الخشبية الغليظة التي تمسكها، وهي تقصد الحقل هناك، كما كان مرهج قد أوصاها:

- قد يغدر بك أي شيء أفعى أو عقرب أو ثعلب ما يدريكِ؟

انطلقت مُهرولة، وهي ترنو إلى موضعه بين الخطوة والأخرى، يلوحُ لها الرجل وكأنه يتخبط، ذراعاه تتحركان بعشوائيةٍ في الهواء، يحاول تحريك ساقيه كذلك، يفشل، تتيقن من وجود خطر ما، قلبها يرتجّ في صدرها، لأوّل مرة تكتشف رغم استقامة قامتها، واعتدال وزنها أنها بطيئة في الركض، كلما حاولت الإسراع أحست بثقل يشلّ ساقيها، تبدت لها المسافة طويلة كسهول البقاع الممتدة التي طالما عشقها زوجها الراحل، لا تشعر الآن بالجمال، تنظر إلى سلطان المتهاوي فيزداد خفقان قلبها.

تقتربُ فترى بوضوح أنّ هناك ما يهاجمه، تتقدم أكثر...

يا رب السماوات كأنه قفير نحل تخبر ذاتها... يا رب السماوات...

عشرات النحل، مئات، ألوف منها، ما زالت تركض وسلطان

يتهاوى، أُسقط في يدها، راحت تصرخ، لأوّل مرة في حياتها تصرخ بهذه الحدّة، وإحساس عارم بالعجز يسكنها، نظرت بذهول إلى بضعة رجال يتقدّمون منه، لم تعرف من أي أرضٍ انبثقوا، نِحاف أقوياء، أحدهم يحمل في يده شيئاً أسود يوجهه نحو سلطان، بعد ذلك رأتهم يرتفعون وينخفضون باتجاهه، لم تفهم ماذا يحدث بالضبط. كلّ العالم الذي كان واضحاً بالنسبة إليها، بدا الآن غير آمن، غير مفهوم.

تنعدم المسافة، تصل إليهم، ثلاثة رجال وامرأتان بَدَتا لها من بعيد كالرجال، كلهم يلبسون سراويل سميكة القماش، وقمصاناً باهتة الألوان.

اقتربت منهم، سمعت بعضهم يتكلم لغة غريبةً لم تفهمها، عندما حاولت الوصول إلى سلطان لم تستطع أن تلمح إلّا هيكلاً مغطى بالسّواد، كان الرجل قد استحال إلى مرعىً حقيقيٍّ لقفيرٍ من النحل.

الخاتمـة

حقّق فيلم (رجل النحل) الذي يتم تداوله منذ أسبوع عبر موقع الـyoutube وعبر شاشات التلفزة المحلية والعالمية أعلى نسبة مشاهدة على الإطلاق.

وكان سائح ألماني يمارس رياضة الهايكنغ هو ومجموعة من رفاقه ممن يقصدون الربوع اللبنانية الجبلية النائية في فصل الربيع، قد قام بتصويره صدفةً، حيث لفتَ نظره قفير نحل هائج راح يطارد رجلاً عجوزاً ظهرَ من بعيدٍ للسّائحين، وهو يتلوى بطريقة غريبة أثارت فضولهم، ودفعتهم للتقدم باتجاهه، والقيام بتصويره حتى اللحظة الأخيرة التي أذهلتهم، ليصعقوا بنهاية الرجل المأسوية التي تمت تحت أنظارهم دون أن يتمكنوا هم من فعل شيء حيال الأمر.

وقد قضى العجوز نتيجة لسع النحل الذي غطّاه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. وتبيّن فيما بعد أنّ النحل المُهاجم من النوع الشرس القاتل المهجَّن، وأن سوء حظ الرجل قد جعله يتعثر بقفيره المتواري بين أعواد الحشيش الذي تعالى في تلك الناحية.

هذا وقد تبيّن بعد التحقيق وبعد فحص الـ DNA الذي أُخضعت له الجثة المتورمة التي نقلت إلى مستشفى قريب، أن الرجل إنما هو الثري الكبير سلطان بك زعتر.

وكان القتيل المذكور قد اختفى منذ زهاء عام، ولم يفلح أحد في العثور عليه، وقد سارعت ابنة أخيه السيدة زهية زعتر الى المكان الذي شهدَ الحادثة الأليمة فأكدت لها المرأة التي كان يحيا معها في منزلها الريفي الجميل - ولم تجب المرأة الحزينة عن طبيعة العلاقة التي جمعتهما سوى بأنها صديقته، معقول؟

- أكدت بأنها دفنته قرب زوجها في حديقة المنزل بعد أن استعادت الجثة من المستشفى، رافضةً بشدة فكرة نبش الجثة لنقلها إلى العاصمة، والقيام بواجبات الدفن والعزاء اللائقة بالمرحوم، قائلة للمجتمعين بحزم:

- كانت وصية الرجل أن أدفنه في هذا المكان بالذات كي ينعم بالسلام، لو كانت حياتكم ممتعة بالنسبة إليه لما فرّ إلى هنا. ألا تعتقدين ذلك سيدتي؟ كُرمى له دعيه يباشر حياةً جديدة بالطريقة التي يريد.

هذا وقد صرّحتِ السيدة زهية بأنها ستحترم وصية عمها المرحوم، معلنةً أنّ المنطقة ساحرة بحقّ، وأنها تفكر في شراء عقارات لها فيها، والقيام بإنشاء بعض الفلل السكنية الجميلة

لاستثمارها هناك.... الأمر الذي أغضب السيدة المُضيفة ودفعَها إلى المسارعة في إغلاق بوابة حديقتها التي كانت تتركها في العادة مشرّعة أمام كل عابر سبيل...

تمّت

تعقيب...

أحلكُ الأماكن في الجحيم هي لأولئك
الذين يحافظون على حيادهم في الأزمات
الأخلاقية.

دانتي أليغاري

في كلّ رواية جديدة تُدهشُكَ هدى عيد بتقنيةٍ سرديّةٍ جديدة، وإتقان تواطئها مع تعدُّد الرواة/ الشّخصيّات، في لعبةِ تطويع الزمن وتكسّره بنبش الذاكرة في بال من يريدُ محوها، من أجل رسم بداياتٍ جديدة... هدى عيد، في روايتها السابعة، تبحثُ عن المختلف والجديد في الموضوعات الاجتماعيّة، لتقترفَ تعريةَ الواقعِ وزيفه عبرَ الإضاءة على المفاسد الاجتماعيّة ومعايبِ السلطةِ وأهلها، والمآزم النفسيّة، في ربطٍ بينها وبينَ الرواسب اللاّواعية، فتفضح العلائق بين الناس التي تقنّعت لتسترَ عهرَها، وتبيّن الاستغلال والقهر بينَ المُستبِدّ والضحايا من النساء والفنانين والتجّار وسواهم...

د. ناتالي الخوري غريب



هدى عيد، من مواليد بلدة الوردانية، قضاء الشوف.

- حائزة على ماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية، الفرع الأول، بيروت.
- أستاذة مادّة الأدب لصفوف المرحلة الثانوية.
- عضو في اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- محاضِرة في العديد من الندوات النقدية والأدبية .
- لها العديد من المقالات النقدية المنشورة في الصحف اللبنانية.
- حائزة على جائزة مؤسسة الحريري للتنمية البشرية المستدامة عن روايتها (حب في زمن الغفلة).
- جائزة المطران الأب سليم غزال للسلم والحوار الوطني اللبناني.
- شهادة تقدير من حلقة الحوار الثقافي في لبنان.
- شهادة تقدير من حزب الخضر اللبنانيّ .
- صدرَ لها عن دار الفارابي: **في بلاد الدّخان** (ط١: ٢٠٠١، ط٢ :٢٠١١)، **الحياة في الزمن الضائع** (٢٠٠٦)، رُكام (٢٠٠٩)، ***نوّارة*** (٢٠١١) ، **حياة أخرى** (٢٠١٢)، **حبّ في زمن الغفلة** (٢٠١٣).


ISBN 978-614-432-462-2
9 786144 324622